صدى فتح مصر الثّاني وإزالة الدّولة الفاطميّة سنة٥٦٧هـ/١١٧٢م في الأدب العربيّ: دراسة موضوعيّة

رائد مصطفى عبد الرّحيم
أستاذ مشارك – جامعة النجاح الوطنية – نابلس – فلسطين

Echoes of the Second Conquest of Egypt and the Removal of the Fatimid State in 567 AH / 1172 AD in Arabic Literature: A Subjective Study.

Raed Abdelraheem
Associate Professor, An-Najah National University, Nablus, Palestine

الملخص:

أفاق العالم الإسلامي في القرن السّادس الهجري على حدث عظيم، وهو سقوط الدّولة الفاطميّة، أو فتح مصر الثّاني سنة٥٦٧هـ/١١٧٢م ، وقد تحقّق ذلك زمن ولاية صلاح الدين الأيوبيّ في المقام الأوّل، بعد أن صدرت له الأوامر من الخليفة العباسيّ المستضيء بالله ومن نور الدّين زنكيّ بقطع الخطبة للخليفة الفاطميّ وإعادتها باسم الخلافة العباسيّة. وقد كان لهذا الحدث أثر كبير في العالم الإسلاميّ أوّلاً ثم في الأدب العربيّ ثانيّاً، وعلى الرّغم من أهميّة الموضوع، وكثرة ما قيل فيه من نصوص أدبيّة إلاّ أنّه لا توجد دراسة علميّة تناولته من جوانبه المختلفة، ومن هنا يأتي هذا البحث ليهدف إلى بيان صدى هذا الفتح في الأدب العربيّ شعره ونثره، الوقوف على أهم الأدباء الذين قالوا فيه، دراسة هذه النّصوص دراسة مضمونيّة للوقوف على معانيها المختلفة. واعتمد البحث على المنهج الاستقرائيّ الوصفيّ التّحليليّ في لمّ شتاته، وبيان نتائجه، ولم يقف على الجانب الفنيّ للنّصوص الأدبية بالتّفصيل خشية الإطالة التي لا يتّسع لها مقام البحث.

الكلمات المفتاحية: صدى، إزالة، فاطميّة، أدب، مضمون

Abstract

During the sixth century AH, a huge event occurred in the Islamic world, which was the fall of the Fatimid state, or the second conquest of Egypt in the year 567 AH / 1172 AD. This was achieved during the reign of Salah al-Din al-Ayyubi, after orders that were issued to him by the Abbasid Caliph Al-Mustadi and Nur al-Din Zangi to end the Fatimid Caliph's reign and restore Egypt under the name of the Abbasid Caliphate. This event had a great impact on the Islamic world first and second, on the Arabic literature. Despite the importance of the event, and the large number of literary texts that have been wrote about it, there is no scientific research that tackles its various aspects. Due to that, this research aims at :Explaining the effect of this conquest on the Arabic literature; its poetry and prose ،Identifying the most important literary figures who wrote about it ،studying these texts substantively to find what their different meanings and explanations are ،the research relied on the inductive, descriptive, and analytical method, and in its results. This research does not focus on the technical side of the literary texts in detail, in order to not widen the focus of the research on other aspects.

Keywords: echo, removal, Fatimids, literature, content

مقدّمة

أفاق العالم الإسلامي في القرن السّادس الهجريّ، وتحديداً سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م) على حدث عظيم كان له صدى كبير في نفوس المسلمين، وهو فتح مصر الثاني، وإزالة الدولة الفاطمية منها، بعد أنّ تمكّن صلاح الدين الأيوبي وجيشه، بإيعاز من القائد نور الدين زنكي، والخليفة العبّاسيّ المستضيء بالله، وكان لهذا الحدث صدى كبير في الأدب العربيّ.

مشكلة البحث

تناولت الكثير من الدّراسات الأدبية والنقدية الأدب في العصرين الفاطميّ والزّنكيّ، إلّا أن باحثاً في أدب هذه العصور لم يتطرق إلى صدى الموضوع أعلاه في هذا الأدب، على الرغم من أهميته، وكثرة ما قيل فيه من فنون أدبية، التي تعدّدت فيها وجهات النّظر تجاه هذا الحدث الجلل.

- **أسئلة البحث**

إنّ هذا البحث يطرح الأسئلة الآتية:

١- ما صدى فتح مصر الثّاني وإزالة الدولة الفاطميّة في الأدب العربي؟

٢- من أشهر الأدباء الذين قالوا فيه؟

٣- ما وجهات نظرهم في هذا الحدث؟

٤- ما مضامين أشعارهم؟

- **أهداف البحث**

تشير أسئلة البحث إلى أهدافه التي يمكن تلخيصها في الآتي:

١- يهدف البحث إلى استقراء صدى فتح مصر الثّاني وإزالة الدّولة الفاطميّة في الأدب العربيّ.

٢- بيان أهم الفنون الأدبية التي كانت صدى لهذا الفتح.

٣- الوقوف على أشهر الأدباء الذين قالوا فيه.

٤- الكشف عن آرائهم المختلفة في هذا الفتح من خلال فنون الأدب التي قالوا فيها ومضامينها.

٥- تحليل مضامين هذه الفنون الأدبية، وبيان المعاني التي عبّر عنها الشعراء تجاه الحدث.

- **أهمية البحث**

تكمن أهمية البحث في

١- أهمية الموضوع وكثرة ما قيل فيه، وعلى الرغم من ذلك لم يتصدّ أحد من الباحثين لدراسته.

٢- في أنّه الدّراسة الأولى التي تتناول هذا الموضوع المهم في تاريخ الأدب العربيّ، وفي حدث مفصليّ في تاريخ الإسلام.

- **مصطلحات البحث**

يدور البحث حول المصطلحات الآتية

- صدى: ويعني انعكاس هذا الحدث في الأدب العربي.
- الأدب العربيّ: هو ذلك الأدب المكتوب باللغة العربية، وتناول الحدث في زمانه وما بعده.
- دراسة موضوعيّة: أي ذلك المنهج الذي يتناول المعاني التي عبّر عنها الأدباء، ويدمج جوانب من الأساليب الفنيّة في أثناء التحليل.

- **الدّراسات السابقة**

لم يعثر الباحث على دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع.

- **منهج البحث**

يقوم البحث على المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، إذ يستقرئ النصوص الأدبية التي كانت صدى لهذا الفتح من مصادرها المختلفة، ثم يصف محتواها، ويحلّل ما فيه ليتساوق مع العناوين التي تمثّل ما عبّر عنه الأدباء.

- **حدود البحث**

يتناول البحث الأدب العربي الذي كان صدى لفتح مصر الثّاني وإزالة الدّولة الفاطميّة سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م)، وتتوسّع حدوده قليلاً ليشمل بعض الأشعار التي مدحت حكّام الدّولة الأيوبيّة لاحقاً، وأشادت بهذا الإنجاز العظيم لدولتهم.

- **إجراءات البحث وأدواته**

إن الإجراءات التي يتبعها البحث لإنجاز أهدافه تتمثّل في حصر المصادر الخاصة بفترة البحث، وحدوده الزمنية، للقراءة حول موضوعه ثم استقراء ما فيها من معلومات حول فتح مصر الثّاني، والأدب الذي كان صدى له، ثم تصنيف هذه الفنون، ووصف محتواها وتحليله تحليلاً موضوعيّاً، ليتوزع على عناوينه المعبرة عنه.

- **أوّلاً: فتح مصر وإزالة الدّولة الفاطميّة**

كان فتح مصر الثاني وإزالة الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م حدثاً مهمّاً في التاريخ الإسلاميّ، وكانت مقدمات هذا الفتح منذ أن وجد نور الدين زنكي موطئ قدم له في مصر بعد أن أرسل إليها قائده أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي بطلب من وزيرها شاور، وخليفتها أبي محمّد العاضد سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م، فثبتت قدمهم هناك بعد أن قضوا على المؤامرات كلّها، وأنقذوا مصر من الغزو الصليبي.

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، عيّن العاضد صلاح الدين الأيوبي وزيراً له، فبدأ يخطط، بالتعاون مع قائده نور الدين، بل والخلافة العباسية في بغداد لإزالة الحكم الفاطمي، وإعادة الخلافة العباسية السّنيّة إلى مصر، فاتخذ خطوات عملية لإضعاف العاضد[١]، ويبدو أنه أدرك منذ البدء أنّ إزالة هذه الدولة لا تكون إلا بالسيطرة على مفاصل الحكم، فتغيير نظام حكم تجذّر في مكان لأكثر من مئتي سنة لا يكون دفعة واحدة[٢]. يذكر المؤرخون أنّ

(١) انظر ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ١١١/٣.

(٢) انظر أبا شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ١٩٨/٢.

أولى خطوات صلاح الدّين لتغيير الحكم في مصر كانت استمالة قلوب الناس إليه، فكان يبذل الأموال لهم، فمالوا إليه، "وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر، والثبات فيه، وضعف أمر العاضد"(١)، وصار بعدها يطلب الأموال منه، ويثقل عليه في إخراجها في محاولة لإضعافه، حتى قيل: إنّه أخذ آخر فرس كانت له، فلزم "العاضد بيته، ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان"(٢)، أي زوال دولته. ثمّ راح صلاح الدّين يحيّد الموظفين الكبار في الدّولة والقصر، فأزاح مؤتمن الخلافة جوهراً مسؤول القصر، وعيّن بدلاً عنه بهاء الدين قراقوش(٣) "وجعله زمامه، واستنابه مناب نفسه، وأقامه مقامه، فما دخل إلى القصر شيء، ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع"(٤). وكان مؤتمن الخلافة هذا قد أبدى نوايا سيّئة تجاه صلاح الدين، فحين رأى وحاشيته تحكّم صلاح الدين بالقصر، "وعلموا أنّ دولتهم زائلة بسببه، أحبّوا الرّاحة منه، فأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد، فإذا خرج صلاح الدين إلى لقائهم، قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة، واجتمعوا هم والفرنج على حربه، وحرب أصحابه واستئصالهم"(٥)، ولكنّ صلاح الدين كشف مؤامرتهم، فقتل مؤتمن الخلافة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، وكان على صلاح الدّين بعد ذلك أن يواجه السودان، وهم عبيد القصر، وعددهم خمسون ألفاً أو يزيد، فهزمهم "فلم يبق منهم إلا الشريد، وضعف أمر العاضد

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١/١٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ١/١٧٩.

(٣) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسديّ، الملقّب بهاء الدّين، من كبار رجالات الدّولة في عهد صلاح الدّين، وقيل في عهد العاضد الفاطميّ، وأسد الدّين شيركوه. لما استقلّ صلاح الدّين بمصر، جعل له زمام القصر، وأوكله بالفاطميّين، ثم ناب عنه فيه، وهو من بنى قلعة القاهرة وسور مصر والقاهرة، وكان له من أهل مصر قصص وحكايات، فألّفوا فيه كتاب (الفاشوش في أحكام قراقوش). توفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م. ابن الجوزي، ٢٠١٣م، ٢٢/٨٣.

(٤) الأصفهاني اختصار البرق الشامي، ، ص٥٨-٥٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ١/٢٠٢.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١/١٧٤-١٤٥.

بالكليّة، وتلاشى أمره"[١]، وراح صلاح الدّين يعيد المجد للمذهب الشافعيّ، فأسس مدرسة له، ولم يكن في مصر سوى مدارس الإسماعيلية التي كانت تعمل على نشر مذهبهم[٢]. ولم تقف إجراءات صلاح الدّين عند هذا الحدّ بل راح يأخذ الفتاوى من الفقهاء، ويسألهم عن إزالة حكم العاضد ودولته، فأفتوه "بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال عقيدة، وفساد الاعتقاد، وكثرة الوقوع في الصحابة، والاستهتار بذلك"[٣]. وعلى ما يبدو أنّ نور الدين زنكي أيقن أنّ الوقت حان للقضاء على الحكم الشّيعي في مصر، واسترجاع الحكم العباسي السنّي، فاستجاب لطلب الخليفة العبّاسي المستضيء بالله[٤] بإنهاء الحكم الفاطميّ، فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بذلك سنة ٦٦٦هـ/١١٧١م، فشرع الأخير في تنفيذ أوامره[٥]بعد أن تيقّن أنّ الأمور مواتية لذلك، وأنّ أعداءه أضحوا قلّة[٦]، ولعلّ ما شجع صلاح الدّين يومذاك أيضاً أنّ العاضد كان مريضاً مرض الموت، ويؤكد ذلك ما رواه أبو شامة المقدسي من أنّه التقى بأبي الفتوح ابن العاضد، فذكر له أنّ والده استدعى صلاح الدّين إبان مرضه، وأوصاه به وبإخوته الصّغار، فأكرمهم صلاح الدّين واحترمهم، وهذا يدلّ على أنّ أمر العاضد كان إلى زوال[٧].

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١/١٧٥-١٧٧، وانظر أبا شامة، الروضتين، ٢/١٩٨.

(٢) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ٣/١١١.

(٣) انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ١/١٩٧.

(٤) أبو محمد الحسن بن الإمام المستنجد، ولد سنة ٥٣٥هـ/١١٤١م وهو الثّالث والثّلاثون من خلفاء الدّولة العبّاسيّة، تولى الخلافة سنة ٥٦٦هـ، كان جواداً كريماً وسمحاً فصيحاً. في عهده زالت الدولة الفاطمية، وتوحدت مصر والشام تحت الراية العبّاسيّة بفضل نور الدّين زنكي وصلاح الدّين الأيوبيّ. توفي سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م. انظر الأصفهاني، ١٩٥٥م، ١/٩-١٨.

(٥) انظر الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ٦٠، أبا شامة، الروضتين، ٢/١٩٨، ١٩٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ١/٢٠٠.

(٦) انظر أبا شامة، الروضتين، ٢/١٩٩.

(٧) انظر أبا شامة، الروضتين، ٢/١٩٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ١/٢٠٢،

وقد اختلف المؤرخون في شأن قطع الخطبة لبني العبّاس، ومن خطب فقطعها، ودعا للعبّاسيّين، ولكنهم أجمعوا على أنّ ذلك كان في الجمعة الأولى والثّانية من شهر محرم من سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، إذ دعا الخطيب للخليفة العباسيّ المستضيء بالله، وخبا ذكر العاضد من الخطبة(١)، وكتبوا بقطعها إلى سائر الأقاليم في مصر(٢).

وهكذا زالت الدّولة الفاطميّة، ورفع شعار العبّاسيّين في مصر بعد أن انقطعت خطبتهم فيها لأكثر من مئتي سنة، وكان ذلك يوماً فرح فيه المسلمون في أقطار العالم الإسلاميّ، وأقيمت فيه الأفراح، أو كما قال العماد الأصفهانيّ: "شاعت البشائر، وسار بها البادي والحاضر"(٣). ويقال: إنّ العاضد مات ولم يعلم بأمر الخطبة، بل قيل إنّه علم بذلك، فمات غمّاً، وبعض الروايات تفيد بأنّه كان في فصّ خاتمه سمّ شربه فمات.

بعد إسقاط الدّولة الفاطميّة، سيطر صلاح الدّين على مفاصل الحكم في مصر، وأخرج أولاد العاضد من القصر الفاطميّ، وأوكل أمرهم لبهاء الدين قراقوش"، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، وأبعد عنهم النّساء لئلا يتناسلوا"(٤). وغنم صلاح الدّين أموال الفاطميّين، وما كان لديهم من ذخائر ومجوهرات وضياع وغير ذلك، وباع منه الشّيء الكثير، وأطلق الجواري والعبيد(٥)، وبيعت المكتبة الفاطميّة، وأُخذ منها ما أُخذ، وقد

(١) انظر الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٥٨، ابن الأثير، الكامل، ٣٦٤/٩، التاريخ الباهر، ص١٥٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٦٩/٢١، أبا شامة، الروضتين، ١٩٠/٢-١٩١، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠٠/١-٢٠٢.

(٢) انظر الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٦٠، ابن الأثير، الكامل، ٣٦٥/٩، التاريخ الباهر، ص١٥٦، أبا شامة، الروضتين، ١٩١/٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠١/١.

(٣) الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٦٠.

(٤) الأصفهاني، مختصر سنا البرق الشامي، ص٥٩، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٢/٢١ أبو شامة، الروضتين، ١٩١/٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢١٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠٢/١-٢٠٣.

(٥) الأصفهاني، مختصر سنا البرق الشامي، ص ٥٩، ابن الأثير، الكامل، ٣٦٥/٩، التاريخ الباهر، ص١٥٦-١٥٧، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢١، ١٨٢، أبو شامة، الروضتين، ١٩٤/٢، ٢٠٩-٢١٠، ابن واصل، ٢٠٣/١.

حصل القاضي الفاضل[١] على نُخَبها، وأعطاه منها صلاح الدّين ما أراد[٢]. ويذكر العماد الأصفهاني متحدثاً عمّا أُخذ من القصر الفاطميّ: " تنقّلت إلى البلاد بين المسافرين، ومن جملتها الكتب فإنّي قد أخذت منها جملة من سنة اثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب من مائة وعشرين ألف مجلّدة مؤيّدة من العهد القديم مخلّدة، ومنها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه التّعدّي، ونقلتُ منها ثمانية أحمال إلى الشّام"[٣].

- **ثانيا: صدى فتح مصر الثّاني في الأدب العربيّ:**

لقد عمّ الفرح والسّرور أرجاء العالم السّنيّ عقب سقوط الدّولة الفاطميّة، وأرسل نور الدّين زنكي الرّسل إلى عاصمة الخلافة العبّاسيّة، تخبر خليفتها بهذا الفتح، فخرجت المواكب لتلقّيهم، ونُثرتْ عليهم الدّنانير، و"ضُربت البشائر عدة أيّام، وزيّنت بغداد، وظهر الفرح والجَذل ما لا حدّ عليه"[٤]. وأرسل الخليفة العبّاسي بدوره الخلع والهدايا والأعلام السود إلى نور الدين زنكي وإلى صلاح الدّين الأيوبيّ في مصر إيذاناً بانضواء حكمها تحت الخلافة العبّاسيّة، وإقراراً على سيادتهما عليها، وشملت الهدايا الخطباء في الديار المصرية، ففرقها صلاح الدين عليهم[٥].

(١) أبو عليّ عبد الرّحيم بن علي بن الحسن البيسانيّ الكاتب، القاضي الفاضل، ولد ببيسان سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م، نشأ في مصر، برع في الأدب والرّسائل، وكان صلاح الدّين يعتمد عليه، ويستشيره في أموره، وملّكه الوزارة، وله ديوان رسائل في مجلّدات. توفي سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م. ابن الجوزي، ٢٠١٣م، ٨٣/٢٢.

(٢) انزر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٢/٢١.

(٣) انظر الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٥٩، أبا شامة، الروضتين، ٢١٢/٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢٠٣/١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٣٦٧/٩، التاريخ الباهر، ص١٥٧، وانظر ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥٦٧/١٨، الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٦٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٠/٢١، أبا شامة، الروضتين، ٢٠٣/٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/١.

(٥) انظر الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٦١، ابن الأثير، الكامل، ٣٦٧/٩، التاريخ الباهر، ص١٥٧، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٢/٢١، أبا شامة، الروضتين، ٢٠٥/٢-٢٠٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٨/١-٢١٩.

وكان لهذا الحدث العظيم أثر كبير في الأدب العربيّ شعره ونثره، ويستدلّ من كلام المؤرّخين والأدباء على ذلك. أمّا النثر، فذكروا أنّه كتبتْ كتب البشائر الكثيرة به إلى الأقطار الإسلاميّة، و"إلى سائر الأطراف"(١). وكانت هناك الرّسائل المتبادلة بين نور الدّين زنكيّ والخليفة العبّاسيّ للتّهنئة والبشارة بهذا الفتح، ومن الكتب التي عثر عليها في أثناء البحث كتاب كتبه الأديب القاضي الفاضل، عبد الرّحيم البيسانيّ، "من صلاح الدّين الأيوبيّ إلى والي قوص"(٢). وأورد أبو شامة المقدسيّ كتاباً آخر للقاضي الفاضل كتبه "عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد"(٣). ويذكر عماد الدين الأصفهانيّ أنّه كتب كتابين للبشارة بهذا الفتح، أمره بذلك نور الدّين زنكيّ: واحداً إلى عامّة المسلمين، وآخر إلى الخليفة العبّاسيّ في بغداد، يقول: "وأمرني بإنشاء بشارة عامّة، تُقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصّة للدّيوان العزيز بحضرة الإمام في مدينة السّلام"(٤). ومن الكتب التي وصلت كتاب أبي الفرج بن الجوزي، فقد ذكر في كتابه المنتظم : أنّ صنّف في هذا الفتح "كتاباً سمّاه "النّصر على مصر"، وعرضه على الخليفة العبّاسيّ، المستضيء بأمر الله(٥)، وتبيّن من الكتاب نفسه أنّ الخليفة العباسيّ بعث خادمه عماد الدين صندل برسالة إلى نور الدين، ومن الطبيعي أن تتضمّن حديثاً عن الفتح، وتهنئة به، وعرضاً لنتائجه، يقول أبو الفرج ابن الجوزي: "وفي ربيع الأوّل خرج الخادم صندل، ومعه القاضي الدّمشقيّ صحبة ابن أبي عصرون(٦) برسالة إلى نور

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢٠٣/٢، وانظر ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/١.

(٢) الأصفهاني، اختصار سنا البرق الشامي، ص٦٠.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ١٩٥/٢.

(٤) الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص٦٠، وانظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٦٩/٢١، أبا شامة، الروضتين، ٢٠٣/٢-٢٠٤، ٢٠٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/١.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ١٧١/٢١.

(٦) عبد الله بن محمّد بن هبة الله، أبو سعد بن أبي السّرِيّ، التّيميّ الموصليّ، القاضي شرف الدّين بن عصرون، ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ-١٠٩٩م، قدّم بغداد، وأقام بها مدّة، قرأ القرآن والأصول، وتفقّه، وسمع الحديث، وصنّف كتباً كثيرة، وأفتى وناظر، ودرّس في دمشق لما فتحها نور الدّين زنكيّ، ثم سافر إلى حلب، وولي قضاء نصيبين ورأس عين =

الدّين بالشّام"[١].

وكان لهذا الفتح صدى كبير في الشّعر العربيّ، وقد تنوّعت هذه الأشعار ما بين أشعار تتنبّأ به، وأخرى تبشّر به قبل حدوثه، وأشعار خلّدته بعد حدوثه، وقد عثر البحث على ست قصائد قيلت بعد الحدث مباشرة: ثلاثة منها للأديب عماد الدين الأصفهاني: قصيدته الرّائيّة، التي وصل منها ٣٩ بيتاً[٢]، وهي "طويلة جدّاً" على ما ذكر صاحبها الأصفهانيّ[٣]، وقصيدته الميميّة، وعدد أبياتها ١٥ بيتاً[٤]، ونظم قصيدة أخرى ميميّة هنّأ فيها نور الدّين زنكيّ بافتتاحه مصر، وعدد أبياتها ٢٨ بيتاً[٥].

وقال فيه الشّاعر أبو العز محمّد بن محمّد، المعروف بابن الخراساني[٦]، قصيدة، ذكر منها تسعة أبيات[٧]. وهناك قصيدة أخرى نونيّة لأبي عبد الله الحسين بن شبيب الطّيبيّ[٨]، قالها في الخليفة المستضيء بالله، هنأه فيها بفتح مصر، وإزالة الدّولة الفاطميّة[١].

=

وحرّان وديار بكر، ووله صلاح الدّين القضاء في دمشق. توفي سنة٥٨٥هـ/١١٩٠م. ابن الجوزي، ٢٠١٣م/ ٣٧٣/٢١، ابن خلّكان، د.ت، ٥٣/٣.

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٩٦/١٨.

(٢) الأصفهاني، ديوان العماد الأصفهاني، ص١٩٨-٢٠٢، خريدة القصر، وجريدة أهل العصر، ١٣/١-١٧، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٦٩/٢١-١٧٠، أبا شامة، الروضتين، ٢٠٦/٢-٢٠٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/١-٢١٨.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، ص١٧.

(٤) انظر الأصفهاني، الديوان، ص٣٧٦-٣٧٧، أبا شامة، الروضتين، ١٩٤/٢-١٩٥.

(٥) انظر الأصفهاني، الديوان، ص٣٨٠-٣٨٢.

(٦) كاتب وشاعر ونحويّ، توفي سنة ٥٧٦هـ، وله اثنتان وثمانون سنة. الأصفهاني، الخريدة، قسم شعراء العراق، م١،ج٢٢٨/٣-٢٥٥، ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ٤٦/١٩-٤٧.

(٧) انظر الأصفهاني، خريدة القصر، م١، ج٢٣٤/٣-٢٣٥، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٠/٢١.

(٨) سعد الدّين، الحسين بن عليّ بن عبد الواحد، أبو عبد الله الطبيّ، ولد بالطيب، وهو حيّ في بغداد، وخص بالخليفة المستنجد بالله، وقربه الأخير منه، فولّاه إشراف المخزن، وصار مؤتمناً لديه، وكان من الفضلاء المؤتمنين، وكان ابن شبيب شاعراً، رائق الشعر، " حلو التشبيب، رقيق النسيب، وله أشعار تخجل الدّر منظوماً، والوشي مرقوماً، والروض ناظراً، والبدر زاهراً". توفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م. (الأصفهاني، ١٩٥٥، ١٨٧/١-١٨٨، ابن الجوزي، =

وقيل في هذا الفتح قصيدة للشاعر عبد الله بن أحمد أبو مجد بن الخشّاب[٢] (ت٥٦٧هـ)، بلغت ستة عشر بيتاً[٣]. وهناك قصيدة رثى بها عمارة اليمنيّ[٤] الدولة الفاطمية، وكانت تمجيداً لها، وهجاء لصلاح الدين الأيوبيّ الذي أزالها، وعدد أبياتها أربعون بيتاً[٥]. وهناك قصائد، ضاع أغلب أبياتها، منها قصيدة الشّاعر أحمد بن المؤمَّل العَدوانيّ البغداديّ[٦]، التي بقي منها خمسة أبيات[٧].

ووجدت بعض المقطوعات التي مدحت سلاطين بني أيّوب، ومجّدت هذا الفتح، ومنها أربعة أبيات للشاعر العرقلة الكلبي حسّان بن نمير[٨]، أبيات للشاعر مجد الدّين بن

=

٢٠١٣م، ٣٠١/٢١، الصفدي، ٢٠٠٠م، ٢٧٨/١٢).

(١) الأصفهاني، الديوان، ص١٨٩.

(٢) عبد الله بن أحمد، أبو محمّد بن الخشّاب، النحويّ اللغويّ، الشّاعر. قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتميّز في علوم مختلفة، وبخاصة النحو، كان يؤدّب أولاد الخليفة، له مؤلفات متعدّدة في اللغة والنحو والعروض والحساب. توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م. ابن الجوزي، ٢٠١٣م، ١٧٧/٢١-١٧٨.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، ١١/٣-١٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٨/٢١-١٧٩.

(٤) أبو محمّد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيد بن بدران الحكميّ، الملقب نجم الدّين، من اليمن، من قحطان من ولد سعد العشيرة، تفقّه بالفقه الشّافعيّ، وأقام في مكّة ثم في مصر بعد أن قرّبه الفاطميّون، وأغدقوا عليه الأموال، وصار عندهم في منزلة رفيعة. شنق سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤هـ، بعد أن ثبت عليه مشاركته ثمانية من الأعيان في مؤامرة لإعادة الدّولة الفاطميّة. ابن الجوزي، ٢٠١٣م، ١٩٦/٢١، الصفدي، ٢٠٠٠م، ٢٨١/١٣.

(٥) عمارة اليمني، الديوان المخطوط، ورقة ٩٨، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٣/٢٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٢/١، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٦٧/١٧.

(٦) أحمد بن المؤمّل بن الحسن بن السّعيد بن أحمد، أبو العبّاس الشاعر البغدادي، أديب فاضل، له نثر وشعر، مدح جماعة وهجاهم، سمع الحديث، وحدّث باليسير، توفي بواسط بالعراق سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م. الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٣٤/٨.

٧- الأصفهاني، خريدة القصر، م١/ ج٣/٣٢٥-٣٢٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٠/٢١-١٧٢.

(٨) حسان بن نمير بن عجل، أبو النّدى الكلبي الدّمشقيّ، الملقّب بعرقلة الكلبي، الشاعر المشهور، وهو من الشعراء العور، اشتهر بموضوعات الشعر المختلفة، وبخاصة النقد الاجتماعي والسياسيّ والهجاء. له ديوان شعر. توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م. الصفدي، ٢٠٠٠م، ٢٨١/١١.

الظهير الإربليّ[1] (ت٦٧٧هـ)، مدح بيها ذريّة بني أيّوب، وأشاد بإزالتهم الدولة الفاطميّة، وعددها ثلاثة أبيات[2].

هذا فضلاً عن أشعار أخرى قيلت في التّنبّؤ بالفتح، وبشّرت به، أو صوّرت فتوحات نور الدّين زنكيّ وصلاح الدّين الأيوبيّ، أو رثتهما، وصوّرت افتتاحهما مصر، سيأتي الإشارة إلى بعضها في ثنايا البحث[3].

ثالثاً: صدى فتح مصر الثّاني في الأدب العربيّ: دراسة موضوعيّة:

لقد خلّد الأدباء هذا الحدث العظيم، وتناولوه من جوانب مختلفة، فحوت آدابهم مضامين متعدّدة، يمكن إجمالها في الآتي:

أ- التّنبّؤ بالفتح والدّعوة إليه

الصّراع على الخلافة بين السّنة والشّيعة قديم، وظلّ كلّ فريق يقدّم رأيه في هذه المسألة عبر تاريخه، ويرى أنّه الأحقّ بالحكم، وأنّه المِمَثّل الحقّ للرّسول محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، وآل بيته، رضوان الله عليهم، وأنّه الأجدر بها، ورافق ذلك طعن كلّ فريق بدين الآخر وعقيدته، ولا شكّ أنّ سيطرة الفاطميّين على مقاليد الحكم في المغرب وأجزاء من المشرق سيطرة كاملة أوجزئيّة كان يشكّل خطراً، وتهديداً للحكم العباسيّ، ومن هنا سعى كلّ طرف إلى تحجيم الآخر، والكيد له، ومحاولة التخلّص منه، ومن هنا تضمّنت الأشعار التي تؤيّد الحكم العباسيّ أو التي يمثّلها شعراء سنّة، لا يعترفون بالحكم الفاطمي الشّيعيّ دعوة متكرّرة لإزالة هذه الدّولة، وإعادة الخلافة إلى العبّاسيّين، وقدّم بعضهم أدلته على ذلك، وهاجم

(١) محمّد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر، الشيخ مجد الدّين بن الظّهير الإربليّ الحنفيّ الأديب. ولد بإربل سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م، ، سمع الحديث ببغداد ودمشق، وكان من كبار الحنفيّة، ودرّس في بعض مدارس دمشق، وهو من أعيان شيوخ الأدب في عصره، وله ديوان شعر. توفي سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٩. الصفدي، ٢٠٠٠م، ٢/٨٧-٨٨.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢/١٩٧-١٩٨.

(٣) انظر الأصفهاني، الديوان، ص٨١، ٨٢، ١٤٥، ١٨٣، ١٩٨، ٤٢٠-٤٢١، ابن واصل، مفرج الكروب، ١/١٧٧-١٧٨، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧.

الفاطميين وحكمهم، وتجلّت هذه الدّعوة في فنّ المنامات، وفي مدائح القادة المسلمين أمثال نور الدّين وأسد الدّين شيركوه وصلاح الدّين الأيوبيّ، وبخاصة بعد دخول الجيش النّوري إلى مصر بدعوة من وزراء الدّولة الفاطميّة أو خليفتها العاضد، ومن أقدم النّصوص التي برزت فيها هذه الدّعوة منامة رواها ابن المارستانيّة (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) في سيرة الوزير ابن هُبيرة، ومفادها أنّ إنساناً من أهل بغداد رأى "في سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، كأنّ قمرين أحدهما أنْوَرُ من الآخر، والأنورُ منهما مُسامتٌ للقبلة، وله لحية سوداء فيها طول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرّكها، وأثَرُ حركتِها وظلّها في الأرض، وكان الرّجل يتعجّب من ذلك، وكأنّه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحانٍ وأصواتٍ لم يُسمع قطّ مثله، وكأنّه سأل بعض من حضر، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد اسْتُبدل النّاسُ بإمامهم. قال: وكان الرّجل قد استقبل القبلة وهو يدعو الله أنْ يجعلهُ إماماً بَرّاً تَقيّاً، واستيقظ الرّجلُ، وبلغَ هذا المنامُ ابنَ هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبّر المنامَ بأنّ الإمامَ الذي بمصر يُستبدلُ به، وتكون الدّعوةُ لبني العبّاس، لمكان اللّحيةِ السّوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتبَ نور الدّين حين دخل أسدُ الدّين إلى مصر في أوّل مرّة بأنّه يَظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العبّاس بها على يده"[١]. وقد كان لهذا المنام أثره في نور الدّين أيضاً، كما يذكر ابن المارستانيّة، فحين طلب الوزير شاور العون منه للتّخلص من الوزير ضرغام بادر إلى فعل ذلك، ويبدو أنّ المنام كان حاضراً في ذهنه يومذاك[٢] (أبو شامة المقدسيّ، ١٩٩٧م، ٢٠٣/٢). وكان لهذا المنام صدى في الشّعر العربيّ أيضاً، فيذكر أبو شامة أنّه قيلت فيه أشعار في ذلك الوقت، وعدّه الشّعراء بشارة خير وتفاؤل، بعث بها الوزير إلى البلاد[٣] ، وممّن قالوا قصيدة فيه، وكان حاضراً تأويله مع الوزير ابن هبيرة الشّاعر شمس الدين أبو الفضائل الحسين بن محمّد بن تركمان[٤]، وقد تنبّأت معاني القصيدة بمجريات

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢٠٠/٢-٢٠٢، وانظر ٢٠٣/٢.

(٢) انظر المصدر نفسه، ٢٠٣/٢.

(٣) انظر المصدر نفسه، ٢٠١/٢.

(٤) من شعراء أهل واسط بالعراق وأكابرهم، كان مقرّباً للوزير ابن هبيرة، ويشاوره في أمره، ويعتمد عليه، توفي شابا سنة =

الأمور مستقبلاً، وكشفتْ عمّا يحمله المنام من فأل خير على الدّولة العباسيّة، فهو يشيد فيه، وبالوزير، وببشارة الهدى والحقّ التي أرسلها إلى العديد من الأماكن، فكان لها من الأثر الشّيء العظيم على الأعداء فاق ما تفعله فيهم السّيوف الحادّة والرّماح الملطّخة بالدّماء، فقد أنزلت في قلوبهم الرّعب، وآذنت بزوال ملكهم، بل وصف المغرب وقد خرجت على حكمهم، ورجفت لها بلاد المشرق التي يسيطرون عليها بمن فيها، منذرة بقرب زوالهم وانتهائهم، وفي مقابل ذلك كانت حياةً وإحياء للمذهب الحقّ، وللخلافة العبّاسيّة، يقول(١):

لِتَهْنِـكَ يا مولى الأنــامِ بشـــــارةٌ بها سيفُ دينِ اللهِ بالحـقِّ مُرهفُ
ضَـرَبْتَ بها هامَ الأعـــادي بهمّـــةٍ تقاصَـرَ عنهـا السّمهريُّ المثقّـف
بَعَثْـتَ إلى شـرقِ البـــلادِ وغربِهـا بُعـوثاً من الآراءِ تُحيـــي وَتُتلفُ
فقامتْ مَقامَ السّيفِ والسّيفُ قاطرٌ ونابتْ منابَ الرُّمحِ والرّمحُ يَرْعفُ
وَقُدْتَ لها جيشاً منَ الرّـوعِ هائلاً إلى كلِّ قلـبٍ من عِداتِكَ يَزحفُ
مَلَكْـتَ بهِ أقصى المغـاربِ عَنـوةً وكـادتْ بمن فيها المشارقُ تَرجُفُ

ويستمر الشّاعر في جعل هذا المنام فتحاً متخيّلاً لمصر، أو بشارة في فتحها عمّا قريب، فيهنّئ ابن هبيرة به، ويبيّن نتائجه المتوقّعة في القضاء على الضُّلال المشركين، وأهل البدع والأهواء من الرّافضة الذين يحكمونها، بعد أن دنّسوا منابر مصر بأسمائهم، وخطبهم التي دعت لتلك الأسماء، واستحضر شخصية نبيّ الله يوسف، عليه السّلام، مرّتين، فقرن انقيادها وطاعتها له، بعودتها إلى خليفة الله الحقّ في أرضه في ذلك الوقت، وهو الخليفة العبّاسيّ المستنجد بالله (٥٦١هـ/١١٦٦م) ، على يد يوسف آخر، وهو كما يقول أبو شامة المقدسي فأل " باسم الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، لأنّ المستنجد مات قبل

=

٥٦١هـ، بعد وفاة الوزير بعام واحد، بعد أن سجن، وعوقب عقاباً شديداً. الأصفهاني، ١٩٥٥م، ٢/٢٧٤.

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢/٢٠١-٢٠٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/٢١٠-٢١١، ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١/٢٣٦.

تغيير الخطبة لبني العبّاس، وهذا من عجيب الاتّفاق"[١]. يقول الشاعر[٢]:

لا غَرْوَ أنْ ذلّتْ ليوسُفَ مــرّةً وكانتْ إلى عليائــهِ تَتَشــوّفُ
تملّكَها منْ قبضةِ الكُفرِ يوسفٌ وخلّصها من عُصبة الرّفضِ يوسفُ
فشابَهَتهُ خَلْقاً وخُلْقــاً وعِفّةً وكلٌّ عن الرّحمنِ في الأرضِ يَخلفُ

وبدأت الدّعوة إلى فتح مصر، وإزالة الحكم الفاطميّ الشّيعيّ فيها منذ أن أرسل نور الدّين زنكيّ جيوشه إلى أرضها، بقيادة أسد الدين شيركوه، وصلاح الدّين الأيوبيّ، فهذا الشّاعر العماد الأصفهانيّ يوجّه خطابه إلى القائد نور الدّين زنكيّ، فيبيّن له أنّ مصر تتطلّع لجيوشه كي تنقذها من الطّغاة المدّعين، وليعيد لها مجدها تحت الحكم السّنيّ العبّاسيّ، ويستوحي قصص القرآن الكريم ليجعل ممدوحه شبيه نبيّ الله داود، عليه السّلام، الذي كان للكافر جالوت بالمرصاد، فقضى عليه، ويقصد بالأخير العاضد الفاطميّ، هو ما يحمله قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[٣]. يقول[٤]:

وإنّ مِصراً لكَ تعنو بَعدَما لِسيفِكَ العَضْبِ عَنّ صعيدُها
والملّةُ الغرّاءُ خالٍ بالُهــا عالٍ سناها بكَ حالٍ جيدُها
مُفتــرّةٌ ثغورُهــا مَمْنوعةٌ ثُغــورُها محفوظــةٌ حدودُها
وإنْ بَغى جالـوتُها ضلالَةً فأنْتَ في إهلاكِـه داودُهــا

ومن أوائل النّصوص الشّعريّة التي دعت إلى فتح مصر ما قاله العماد الأصفهانيّ سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، في مديح نجم الدّين أيوب والد صلاح الدّين الأيوبيّ، فيشيد فيها

(١) أبو شامة، الروضتين،٢/٢٠٢.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢/٢٠٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/٢١٠-٢١١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١/٢٣٦.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٥١،

(٤) الأصفهاني، الديوان، ص٩٨.

بالأخير، وبدوره في حماية مصر من أعدائها الصّليبيّين، ومن والاهم من وزراء الدّولة فيه، فيدعو أن تصبح مصر تحت سلطانه، ويلتقي فيها النّاصر صلاح الدّين يوسف بأبيه وإخوته، كما التقى بأبيه يعقوب وإخوته نبي الله يوسف، عليه السّلام، وكشف الغمّة عن أهلها، ولا يخفى ما لهذا التّناص من دلالة واضحة على الصّراع الدّينيّ القائم يومذاك بين الدّولة العبّاسيّة والفاطميّة، وأنّ زوال الأخيرة دحرٌ للكفر والضّلال، يقول[١]:

بِمُلكِ مصرَ ونصرِ المؤمنينَ غدا تَحظى النّفوسِ بتأنيسٍ وتطييبِ
ويستقرّ بمصرٍ يوسفٌ وبه تَقَرُّ بعدَ التّنائي عينُ يعقوبِ
ويلتقي يوسُفٌ فيها بإخوتِهِ والله يجمَعُهُمْ من غيرِ تثريبِ
فارجو الإلهَ فَعَنْ قُربٍ بِنُصرتِهِ سَيَكشفُ اللهُ بَلْوى كلِّ مكروبِ

وفي السَنة ذاتها ٥٦٢هـ/١١٦٧ كتب العماد الأصفهاني قصيدة إلى صلاح الدين الأيوبيّ، مدحه فيها، ويشيد بإنجازاته المتواصلة، ويحثّه على إعادة الخلافة العباسيّة، والقضاء على ادّعوها لأنفسهم، يقول[٢]:

فاسْتردّوا حقَّ الإمامةِ مِمّنْ خانَ فيها فإنّه مُستعيرُ

وكانت سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م مصدر تفاؤل للشّعراء، فزادوا فيها من الدّعوة إلى الخلاص من الحكم الفاطمي، ذلك أنّ فيها كان تولّي أسد الدين شيركوه زمام الوزارة في مصر ثم تولّي صلاح الدين الأيوبي الأمر بعده في السنة ذاتها، ذلك أنّها كانت مقدمة السّيطرة التّامة، والتّحكّم بمفاصل الدّولة المصريّة، يروي المؤرخين أنّ اليوم الذي تولّى فيه صلاح الدّين الوزارة كان مشهوداً، " ارتفعت الأصوات له بالدعاء"[٣] (ابن إياس، د. ط، ج١ ق١/٢٣). ومن الشّعراء الذين استبشروا بهذا الانقلاب السّياسيّ في موازين الحكم عماد الدّين الأصفهانيّ الذي هنّأ أسد الدّين شيركوه بتقلّده الوزارة للعاضد، ودعاه صراحة

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١/٢٣٣.

إلى إعادة الخلافة للعباسيّين، وإلى إزالة حكم العاضد الذي كان يدّعي حقّه فيها، يقول[١]:

رُدّ الخـلافةَ عباسيّـةً وَدعِ الـــدّ عيَّ فيهـا يُصـادفُ شرَّ مُنقَلَـــبِ
لا تَقطَعنَّ ذَنَبَ الأفعى وتُرسلها فالحزمُ عندي قَطعُ الرّأسِ كالذّنبِ

ويتناص الشّاعر في أبياته مع قول الشّاعر أبي أذينة ابن عمّ الأسود بن المنذر بن النّعمان في قوله[٢]:

لا تَقْطَعنّ ذَنَبَ الأفْعَى وتُرسلها إنْ كُنتَ شهماً فَأَتْبِعْ رَأسَها الذّنَبا

ويعدّ العماد الأصفهانيّ سيطرة صلاح الدّين على الوزارة في مصر ثم إنجازاته العظيمة هناك نهاية للفاطميّين ومذهبهم، وإحياء للمذهب السّنيّ والخلافة العبّاسيّة في ربوعها، وإعادة للحقّ والعدل إلى نِصابه، ويكرّر استيحاءه قصّة يوسف، عليه السّلام، ليربط بين تولّيه الحكم في مصر، وخضوعها له، وبين تولّي صلاح الدّين يوسف مقاليد الحكم فيها، يقول[٣]:

وما مهّـد من بُنيا نِ دينِ الحقِّ في مصرِ
وما أسـداهُ من برٍّ بلا عَـدٍّ ولا حَصْرِ
وما أحياهُ من عـدلٍ وما خَفّـفَ منْ إصـرِ
وإعلاء سنـا السّنّـ ـةِ في بحبوحةِ القَصرِ
قد استولَى على مِصرٍ بحـقِّ يوسُفِ العَصْرِ
وأحيـا سُنّةَ الإحْسـا نِ في البَدوِ والحَضْرِ

ويدعو الشّاعر العرقلة الكلبيّ الله أن يهيئ الأمور للنّاصر صلاح الدّين يوسف كي يسيطر على مصر كما هيّأها من قبل لنبيّه يوسف الصدّيق، عليه السّلام، ولا يخفى على القارئ أن تكرار هذا الرّبط بين الشّخصيّتين دلالة على نظرة الشّعراء لصلاح الدّين،

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٨١.
(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار الدول، ٧٦٣/١.
(٣) الأصفهاني، الديوان، ص١٩٨.

وتفاؤلهم بأنّه من سيعيد للدّين ألقه، فيزيل الظّلم، وينشر العدل في مصر، يقول[١]:

أقولُ والأتراكُ قد أزمَعَتْ مِصرَ إلى حربِ الأعاريبِ
ربِّ كما مَلّكْتَها يـوسفَ الـ ـصـدّيق من أولادِ يعقوب
يملكها في عَصْرِنا يوسفُ الـ ـصادقُ من أولادِ أيّـوبِ

ولعلّ هذه الفرحة التي عمرت نفوس النّاس بعد تولّي صلاح الدّين كان سببها إجراءاته التي أعادت للمذهب السّنيّ هيبته، فقد أبطل ما كان يُقال في الأذان: حيّ على خير العمل، وعزل قضاة مصر من الشّيعة، وأقام مكانهم قضاة من المذهب الشّافعيّ، "واستناب في سائر أعمال مصر الشوافعة، وأقام مجد الشّافعية دون غيرهم من المذاهب"[٢]. ووقد عبّر الشّاعر عرقلة الكلبيّ عن فرحة مصر بوزارة صلاح الدّين، التي عمّ السّرور بلادها، وتغنّت طبيعتها به طرباً، واستبشر به الهدى، إذ كان وبالاً على الكفر الضّلال في مصر، ويوم ندم وحسرة له ولأتباعه، يقول[٣]:

قدْ مالَ غُصنُ الرّياضِ منْ طَرَبٍ وافترّ ثَغْرُ البلادِ وابتسما
واستبشرتْ أوجهُ الهُدى فَرَحاً فليقرعِ الكُفرُ سِنّهُ نَدَما
وصارَ شَمْـلُ الصّـلاحِ مُلتئماً بها وعقدُ السّدادِ مُنتظما

وزاد تفاؤل النّاس والشّعراء بزوال الدّولة الفاطميّة عندما ضبط صلاح الدّين الأيوبيّ أمور القصر الفاطميّ، فأنهى تمرّد عبيده، ومؤامرة مؤتمن الخلافة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، إذ عدّ الشّعراء هذه الإنجازات فتحاً لمصر، وسيطرة عليها حتى قبل قطع الخطبة للعاضد، وإعلانها للخلافة العباسيّة، ومن الشّعراء الذين صوّروا ذلك، وعبروا عنه الشّاعر عماد الدّين الأصفهانيّ إذ هنأ مصر بتولي صلاح الدين الأيوبيّ يوسف بن أيّوب حكمها، وجعل تخلّصه من شاور، وقتله إيّاه كفعل نبيّ الله دواد، عليه السّلام، بالملك جالوت، وفي هذا التّناص

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١/٢٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ق١/٢٣٣.
(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١/٢٣٣.

دلالة على طبيعة الصّراع بين الكفر والإيمان الذي كان دائراً بين الخلافة العبّاسيّة التي مثّلها صلاح الدّين، والحكم الفاطميّ الذي كان يجسّده الوزير شاور، يقول(١):

هنيئاً لمصرٍ كونَ يوسفَ مَلْكها بأمرٍ من الرّحمنِ قد كان موقوتاً

وما كان فيها قتلُ يوسفُ شاوراً يماثــلُ إلاّ قتــلَ داودَ جالوتاً

ويمدح الشّاعر يحيى بن سالم بن أبي حُصينة الأحدب الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، فيبيّن له أنّ ما حققه من انتصارات على وزراء الفاطميّين وغيرهم من العبيد السّودان والمتآمرين ما هو إلا بقدر من الله ليعجل سيطرة ممدوحه على مصر، ليعيش في نعمة الله هناك، وما فيها من قصور وجنان، ويعلي من قدره، ويغضّ من الفاطميّين إذ صوّر مصر وقد أضحت عزيزة بحكمه، وشرفت به عمّن كان يحكمها من الفاطميين، فقد كان لؤلؤة وحكّامها السّابقون أصدافها. أما اليوم، فقد أضحى حاكمها الجديد لؤلؤتها ومصدر سعادتها، يقول(٢):

قدْ عجّل اللهُ هذي الدّارَ تسكنُها وقد أعـدَّ لكَ الجنّـاتِ والغُـرفا

تشرّفَتْ بكَ عمّنْ كانَ يسكُنُهـا فالبسْ بها العزَّ ولْتَلْبسْ بكَ الشَّرَفا

كانوا بها صَدَفاً والدّارُ لؤلؤةٌ وأنتَ لؤلـؤةٌ صـارتْ لها صَدَفا

ب- نتائج فتح مصر الثّاني وإزالة الدّولة الفاطميّة

ركّز الأدباء الذين خلّدوا فتح مصر الثّاني على صورته، وتغنّوا بنتائجه العامّة، ونتائجه الاجتماعيّة والدّينيّة، ومنهم الشّاعر العماد الأصفهانيّ الذي رسم له صورة تقليديّة حين صوّره فتحاً بكراً، خصّ الله به أولئك القادة دون غيرهم، فنالوا به حسن الثّناء، وأجر الله وثوابه، وقهروا أعداءه، وخطبوا لأوليائه من العبّاسيّين في مصر، وهو في ذلك كلّه يشير إلى عظمة هذا الفتح وتفرّده، وما له من دور في نشر الحقّ، ودحض الباطل، يقول(٣):

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١/١٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ١/١٨٧.

(٣) الأصفهانيّ، الديوان، ص٢٠٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢١/١٧٠، أبو شامة، الروضتين، ٢/٢٠٦، ابن =

هو فَتْحٌ بِكْرٌ ودونَ البرايـــا خَصّنا اللهُ بافتـــراعِ البِكْـرِ
وحَصَلْنا بالحَمْدِ والأجرِ والنّصـ ـرِ وطيبِ الثّنا وحُسنِ الذّكرِ
ونَشرْنا أعلامَنا السّـــودَ قَهْراً للعِـــدا الزُّرقِ بالمنايـا الحُمْـرِ

ولا شكّ أنّ الألوان التي استخدمها الشّاعر: السّود، والزّرق، والحمر لها دلالتها، فالأسود شعار العبّاسيّين وعلمهم، والأزرق دلالة على سوء العدوّ ووحشيته من فاطميّين وفرنج الذين كانوا يؤازرونهم، والحمر دلالة على أنّ هؤلاء لا يفهمون سوى لغة القوة، وبها كانت نهايتهم.

ووقف الشّعراء على نتائج الفتح الاجتماعيّة على مصر والعراق بل العالم الإسلاميّ بأسره، فهذا الشّاعر العماد الأصفهانيّ يعبّر عن تفاؤله بقدوم الخلافة العبّاسيّة، وعودتها قويّة إلى مصر، فقد جلب ذلك الخير لا لمصر وحدها بل لبغداد كذلك إذ فاض نهراهما دجلة والنّيل، وكان مقدّمة لزوال الفقر وعموم الخير، ونعمة كبرى من الله على أهل هذه البلاد، تستحق الشّكر والثّناء، يقول(١):

وجرى مِنْ نداهُ دجلةَ بَغْـدا دَ بشَطْرٍ ونيلُ مِصر بِشَطرِ
فَبِجدواهُ زائـــلٌ كـلُّ فَقْـرٍ وبِنُعماهُ آهـــلٌ كـلُّ قَفْـــرِ
نشكرُ اللهَ إذْ أتَمَّ لنا النّصْـ ـرَ ونرجو مزيدَ أهلِ الشُّكـرِ
وَلَدينا تَضاعفتْ نِعَـــمُ الـ ـلهِ وَجَلَتْ عنْ كلِّ عَدٍّ وحصرِ

وأعاد هذا الفتح الأمنَ والسّرور إلى مصر بعد زمان من الخوف، فأضحتْ حَرماً لكلّ ملهوف وخائف، وهو ما يبدو في قول الشّاعر نفسه مهنّئاً نور الدّين زنكيّ بالفتح(٢):

وأصْبَحتْ بكَ مصرٌ بعْدَ خيفَتِها للأمنِ والعزّ والإقبالِ كالحَرَمِ

=
واصل، مفرج الكروب، ٢١٧/١.
(١) الأصفهانيّ، الديوان، ص١٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨١.

وعبّر الشّاعر أبو العزّ محمّد بن محمّد بن المواهب المعروف بابن الخراسانيّ عن فرحة النّاس بهذا الانتصار، ويبدو في شعره مُستوحياً قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)[١]، ليبيّن أنّه لا تثريب على النّاس بفرحهم، فالفتح أهل لأن يُدْخِل على قلوبهم كلّ سرور، يقول[٢]:

جاءِ البشيرُ فَسُرَّ الناسُ وابتهجوا فما على ذي سُرورٍ بعدها حَرَجُ

ويعلّل الشاعر نفسه مصدر هذه السّعادة والخير، إذ خاطب المصريّين، وبيّن لهم أنّ سعادتهم مصدرها خضوعهم للخلافة العبّاسيّة، وعودتها إلى بلدهم، ممثّلة بالخلفية المستضيء بالله الذي خضع النّاس له، وسلّموا بحبه، حتى امتزج بدمائهم، يقول[٣]:

يا أهلَ مصرٍ لقدْ جاءتْ سعادتُكمْ واستوضحتْ سُبُلُ الخَيْراتِ فابْتَهجوا

صِـــرْتُمْ رعيّةَ خَيْرِ الخَلْـــقِ كُلِّهِمُ مِنْ حُبِّهِ بِدِمـــاءِ الخَلـــقِ مُمْتَـــزِجُ

وركّزت نصوص الأدباء على نتائج الفتح الدّينية، فكانت المحور البارز في حديثهم عن أثر هذا الفتح على الدّين الإسلاميّ وأتباعه، ذلك أنّ طبيعة الصّراع بين العباسيّين والفاطميين في أساسها دينيّة، بين حقّ وباطل، وإيمان وكفر. فقد اتّخذ كلّ فريق من الدّين وسيلة للتّرويج لأربابه، وأحقّيتهم في الخلافة والحكم، ورموا بعضهم بعضاً بالخروج على الإسلام وتعاليمه، ومن هنا ركّز أغلب الأدباء الذين خلّدوا فتح مصر الثّاني على ترويج الخطاب الدّيني العبّاسي، ونظرته إلى الفاطميّين، ومن هنا كانتْ عودة الخطبة باسم الخليفة العباسيّ المستضيء بالله عودة للحقّ إلى نصابه، فهو الإمام الشّرعيّ، وخليفة النّبيّ محمد، صلّى الله عليه وسلّم، وهو ما يتجلّى في قول العماد الأصفهانيّ[٤]:

(١) سورة النور، آية ٤١٦.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٠/٢١.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٠/٢١.

(٤) الأصفهاني، الديوان، ص١٩٨-١٩٩، خريدة القصر، ١٤/١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٦٩/٢١، أبو شامة، الروضتين، ٢٠٦/٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/١، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٧/٣٩.

وقد خَطَبْنا للمُستضيء بِمِصرٍ نائـبِ المصطفى إمـامِ العَصـرِ
وأَشَعْنا بها شِعـــارَ بني العَـــ ـبّاسِ فاستبشرتْ وُجوهُ النّصْرِ

ويصوّر الشّاعر ذاته منابر مصر وقد تفاخرت بالخطبة للخليفة الهاشميّ المستضيء بالله، وثبتت أركان الدّين فيها، فأضحى الهدى ضاحكاً مستبشراً، وزال الضّلال ودعاته من واقع المصريين وحياتهم، بعد أن اعتادوا عليه، وعلى سماعه حقبة طويلة من الزّمن، يقول(١):

وتباهـتْ منابـرُ الدّيـنِ بالخُطْـ ـبةِ للهـاشميّ في أرضِ مِصـرِ
وقدِ اهتـزَّ للهُـدى كـلُّ عِطْـفٍ مثلما افترَّ بالمنى كلُّ ثَغْـــرِ
ونـداءُ الهُدى أزالَ من الأسْـــ ـماعِ في كُلِّ خِطّةٍ كـلَّ وَقْـرِ
فاغْتَدى الدّينُ ثابتَ الرُّكنِ في مصـ ـرَ مَحوطَ الحِمى مَصونَ الثّغرِ

ويكرّر العماد الأصفهانيّ معانيه السّابقة في قصائده، فيشدّد على رجوع الخلافة إلى أصحابها الشّرعيين بعد طول غياب واغتصاب، وعلى عودة أهل مصر إلى الرّشد والصّواب بعدما كانوا فريقين بين مؤمن به، وتابع للفاطميّين، مؤمن بخلافتهم، وبذلك عاد الدّين قويّاً ثابتاً بعد طول ضَعْف وانكسار، يقول(٢):

عَرَفَ الحقَّ أهلُ مصر وكانوا قَبْلَهُ بينَ مُنْكِرٍ ومُقـرّ
واستعدْنا من أدعياءَ حقوقاً تُدّعَى بينهمْ لزيدٍ وَعَمرو
نَعَشَ الحَـقُّ بَعْدَ طـولِ عِثارٍ جَبَرَ الحقَّ بَعْدَ وَهنٍ وكَسْرِ

ويصوّر العماد الأصفهانيّ في قصيدة أخرى ما كان عليه الدّين الحقّ من ظلم وتحييد إبّان الحكم الفاطميّ، ليبيّن أنّ ذلك كلّه زال بعد الخطبة للمستضيء بالله، ويكرّر توظيف

(١) الأصفهاني، الديوان، ص١٩٩، خريدة القصر، ١٥/١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٦٩/٢١، أبو شامة، الروضتين، ٢٠٦/٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٦/١-٢١٧.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص٢٠٠، ٢٠٢، خريدة القصر، ١٧/١، أبو شامة، الروضتين، ٢٠٦/٢، ابن واصل، ٢١٧/١.

الصّور الفنيّة المعبّرة عن سعادة الهدى والإيمان، وانكسار الكفر وزواله في مصر، يقول[١]:

وعـادَ بالمسْتَضـــيء مُجتهـــــداً بِناءُ حـقٍّ قد كـانَ مُنهــدما
واعتلتِ الدّولةُ التي اضطُهدتْ وانتصرَ الدّينُ بعدما اهْتُضما
واهتزّ عِطفُ الإسلامِ منْ جَذَلٍ وافترَّ ثَغــرُ الإيمانِ وابتسمـا
واسْتَبْشَرتْ أوجهُ الهُــدى فَرَحاً فليقـرعِ الكُفــرُ سنّـهُ نَدَمـا

ويجعل الشّاعر ذاته زوال الحكم الشّيعيّ في مصر انتصاراً للسّنة النّبويّة التي غابت معالمها عن أرض مصر سنوات طويلة، ورجعت إليها دولة الجود والكرم، وهي الدّولة العباسيّة، وهزم حكم البدعة والضّلال، يقول[٢]:

والسّنّةُ اتّسقتْ والبدعةُ انمحَقَتْ وعاوَدتْ دولةُ الإحسانِ والكَرَمِ

وفي قصيدة أخرى يعبّر العماد الأصفهانيّ عن المعاني السّابقة، ويضيف إليها أنّ الفرحة بهذا الانتصار وبنتائجه العظيمة، وبعودة الخلافة إلى العباسيّين لم تقتصر على مصر وحدها بل شملت بلداناً أخرى، ومنها اليمن والمغرب، يقول[٣]:

بالمستضيء أبي محمّـدٍ الحسنْ رَجَعَتْ أمورُ المسلمينَ إلى السُّننْ
في أرضِ مِصرَ دعا له خطباؤها وأتَتْ لِتَخطُبَ بكْرَ خُطْبَتِهِ عَدَنْ
فالمغربُ الأقصى بذلكَ مُشْرقٌ وبنصرِ مصــرَ مُحقَّقٌ يُمـنِ اليَمنْ

وتتجلّى نتائج الفتح الدّينية لدى الشّاعر ابن الخراسانيّ محمّد بن مواهب، الذي صوّر مصر وقد عادت إلى صراطها المستقيم بعد عودة الخلافة الشرعيّة إليها، فدخل أهلها في الحقّ بعد أن حادوا عنه طويلاً إبّان خضوعهم للفاطميّين، يقول[٤]:

أقيمتِ الدّعوةُ الغرّاءُ مُعلَنةً للمُستضيء بمصرٍ واستوى العَوجُ

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٣٧٧، أبو شامة، الروضتين، ١٩٥/٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١٠/١٤.
(٢) الأصفهانيّ، الديوان، ص٢٨١.
٣ –المصدر نفسه، ص٤٢٠.
(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٠/٢١.

هو الإمامُ الذي قامتْ دلائلُهُ وكـلُّ ذي لَسـَنٍ بِشُكـرِهِ لَهِـجُ
حتّى لقدْ دَخَلَ الأقوامُ كلُّهُـمُ في دينِ خالِقِهـمْ من بَعْدِ ما خرجوا

ويركّز الشاعر أحمد بن المؤمّل العُدوانيّ البغداديّ على نتائج الفتح الدّينيّة، فعدّه فتحاً من الله، واعتذاراً من مصر عن خطئها وخضوعها لأدعياء الخلافة من الفاطميّين، ويوجّه خطابه إلى الخليفة المستضيء بالله كي يصفح عنها، ليعود إليها نور الإيمان، بعدما طغى الظّلم والضّلال على منابرها وجوامعها في الخطبة لغيره عليها، ويصوّر الفتح خذلاناً للفاطميّين وأتباعهم، فتحوّلت مدينة القاهرة إلى قهر لهم، يقول(١):

قدْ جـاءَ فتـحُ اللهِ والنّصـــرُ واعتَذَرَتْ ممّا جَنَتْ مِصـرُ
وأَرْسَلَـتْ تَسْألُ صَفحـاً لهـا فاغفـرْ فَمِنْ عادَتِكَ الغَفرُ
كـــانَ على مِنبَرِهـــا ظُلمـــةٌ إذْ لمْ يَكُـنْ في أفْقِهـا بَـدْرُ
فمُذْ أضاءَ المستضيء أشْرَقَتْ وابتهـــجَ المنبـــرُ والقَصرُ
وأصبَحـــــتْ قاهـــرةَ المدّعي مقهـــورةً قد زانها القهرُ

ولم يخرج أبو محمّد ابن الخشّاب على المعاني السّابقة كثيراً، فقرن بين حالة مصر قبل فتحها وبعده، فبيّن أنّها كانت تعيش حالة من اليأس والخوف والحزن إبان الحكم الفاطمي، ولكن عاد إليها الفرح والسّرور بعد رجوع آل النبيّ إليها، في إشارة إلى العباسيّين، وإلى أحقيتهم في الخلافة، ويبيّن أنّ مصر شأنها شأن عاص، خرج على مولاه زمناً، ثمّ عاد إليه، فغفر له زلّته، وشمله عطفه ورحمته، يقول(٢):

يقولونَ مصرَ قدْ أبانتْ وأقلعتْ وقدْ سَعِدتْ منْ بَعْدِ شِقوتِها مصرُ
وآلـتْ إلى آلِ النبيّ وآنَسَـــــتْ طُمأنينةً منهـــمْ وكـــانَ بها ذُعرُ
وهل مِصرُ إلا آبقٌ غـــابَ بُرهةً وعـادَ إلى مولـىً لهُ أمْرُهُ الأمـــــرُ

(١) الأصفهانيّ، خريدة القصر، م١، ج٣/٣٢٥-٣٢٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢١/١٧٠-١٧١.
(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢١/١٧٨.

فأوسَعَهُ صَفحـــاً وأولاهُ رحمــةً وكان لهً منهٌ التّغمّـــدُ والغَفـــرُ

وعبّرت الرسائل وكتب البشارة عن نتائج الفتح الدينية، وتشابهت معانيها مع ما ذكره الشعراء، فهذا القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ كتب رسالة عن صلاح الدين الأيوبيّ إلى وزير بغداد، يبشّره بفتح مصر، صوّر فيها نتائج فتح مصر الدّينيّة، وأثره على الإسلام والمسلمين، فقد اعتدل به ميزان الحقّ بعد عودة الخلافة العباسيّة إلى مصر، وزال عنها الفساد، وعاد حكمها إلى الطّريق القويم، وتوحّدت راية الإسلام بعد أن كانت شيعاً، وأضحى المسلمون تحت عقيدة واحدة، وشعار واحد، وزالت منها البدع والأهواء، وعاد الجهاد ليشمل الجبهات كلّها في مصر والشّام واليمن، يقول(١):

"كتب الخادمُ هذه الخِدمةَ من مستقرّه، ودين الولاءِ مشروع، وعلم الجهاد مرفوعُ، وسؤددُ السّوادِ متبوعُ، وحكمُ السّدادِ بين الأمّة موضوعُ، وسبب الفسادِ مقطوعُ ممنوعُ، وقد توالت الفتوحُ غرباً ويَمناً وشاماً، وصارت البلادُ بل الدّنيا، والشّهرُ بل الدّهرُ حرماً حراماً، وأضحى الدّينُ واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافةُ إذا ذُكّر بها الخِلاف لم يخرّوا عليها صُمّاً وعُمياناً، والبدعة خاشعةٌ، والجمعةُ جامعة".

وكتب العماد الأصفهاني كتاب بشارة صدر عن ديوان الإنشاء النوريّ إلى بغداد، وحمله شهاب الدّين أبو المعالي المطهّر بن أبي عصرون، وهو كتاب طويل، تحدّث فيه عن ميزات فتح مصر، وإزالة الدّولة الفاطميّة، وركّز على نهاية الدولة الفاطميّة، وعود الخلافة العبّاسيّة، والخطبة إلى خليفتها في مصر كلّها " أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلاميّة عامّة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضحنا منهاجه، وهو ما اعتمدناهُ من إقامة الدّعوة الهادية العبّاسيّة بجميع المدن والبلاد، والأقطار، والأمصار المصريّة والإسكندريّة، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدّانية والقاصية، والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب

(١) أبو شامة، الروضتين، ١٩٥/٢-١٩٦، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٧٨/٣٩-٢٧٩، الصفدي، ٣٦٧/١٧-٣٦٨.

والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصّعيد"(١).

ويركّز الكتاب على نتائج هذا الفتح، وبخاصة الدينية منها، فقد خصّ الله به زمانه وقادته، بعد أن عجز عنه من سبقوهم، وتقاصرت الأيام عن إنجازه، فزال به حكم البدع والضّلال، وهُزم حزب الشّيطان بعد أن استمر حكمه زهاء ٢٨٠ سنة، خلت منها دعوة الحق واليقين، وسيطر حكم المبطلين، ويبيّن الأصفهانيّ الجهود التي بذلت لتحقيق هذه الغاية، ووصف الهمم العالية التي أنجزته إذ قال: "وهذا شرفٌ لزماننا هذا وأهله، يفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هِمَمُنا إلى مصر مَصْروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدّعوة الهادية بها ماضية، والأقدار في الأزل بقضاء آرابنا، ونجاز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وآبت دونها الأيام واللّيالي، وبقيت مئتين وثمانين سنة ممنوّة بدعوة المبطلين، مملوءة بحزب الشّياطين، سابغة خلالها للضّلال، مقفرة المحلّ إلا من المحال، مفتقرةً إلى نصرةٍ من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعة يدها في إشكائها، مُتظلّمة إليه ليكفل بأعدائها على أعدائها حتى أذنَ الله لِغُمّتها بالانفراج، ولعلّتها بالعلاج"(٢).

ويركّز الكتاب على تصوير أثر الفتح على الصّليبيّين، إذ توقّف مدّهم إلى مصر بعد أن حاولوا احتلالها مراراً، فيئسوا منها، وبيّن أثره على الدّين الإسلامي وعلى المسلمين، فهزم به أرباب البدعة والأهواء، والكفر، والإلحاد، والرّفض، ومدّعي الخلافة، وآبت دعوة الحقّ العباسيّة إلى نصابها راشدة، يقول مشيراً إلى الأوامر التي صدرت إلى صلاح الدّين الأيوبيّ بقطع الخطبة للفاطميّين وإعادتها إلى الخلافة العباسية: "وسبّب قصدَ الفرنج لها، وتوجّههم إليها، طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفرُ والبدعة، وكلاهما شديد الرّوعة، فمكّننا الله تلك البلاد، ومكّن لنا في الأرض، وأقدَرنا على ما كُنّا نؤمّله في إزالة الإلحاد

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢٠٣/٢-٢٠٤.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢٠٤/٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٦/٣٩.

والرّفض، من إقامة الفرض، وتقدّمنا إلى من استنبناه أن يستفتح بابَ السّعادة، ويستنجح ما لنا من الإرادة، ويقيم الدّعوة الهادية العباسيّة هنالك، ويورد الأدعياء، ودعاة الإلحاد بها المهالك"(١).

ج- صورة القادة المسلمين

إنّ الحديث عن القادة الفاتحين جزء لا يتجزّأ من النّصّ الأدبيّ المعبّر عن الانتصار والفتح، وقد برزت صورتهم بجلاء في النّصوص التي خلّدت فتح مصر الثّاني وإزالة الدّولة الفاطميّة التي أشادت بالخليفة العباسيّ المستضيء بالله، وبالقائدين نور الدين زنكي، وصلاح الدّين الأيّوبيّ. ولعلّ حضور صورة المستضيء كانت أكثر من غيرها، ذلك أنّ هذا الفتح، وإن لم يكن دوره الرّئيس فيه، إلاّ أنّه كان يمثّل عودة المذهب السنيّ، الذي ترمز إليه الخلافة العباسيّة، ويعبّر عن وجدان أكثر المسلمين، ومن هنا لا يكاد يخلو نص من حديث عن هذه الخلافة والخليفة، وعن إعادة الخطبة لهما، وبذلك صدرت أوامر نور الدين زنكي لصلاح الدين الأيوبيّ، وبذلك أوعز صلاح الدّين لولاة مصر، ومنهم والي قوص الذي أرسل إليه ذلك في كتاب كتبه القاضي الفاضل، وممّا جاء فيه: "وسبيل الأمير أن يوعز إلى الخاطب يوم الجمعة بالدّعاء لمن الكلمة عليه مجموعة، والدّعوة في الأقطار له مسموعة، وهو الإمام المستضيء بأمر الله، أمير المؤمنين، وليلزم النّاس العافية، فإنّها أسبغ عطاء، وأسبل غطاء في تنقّل الأيام، عبرة "لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ")(٢). وهكذا بدت صورة الإمامة الشرعيّة للمسلمين التي على عامتهم طاعتها، والسّير في ركابها.

ويخصّص العماد الأصفهانيّ أجزاء من قصائده في الفتح، والتّهنئة به للإشادة بالخليفة المستضيء بالله بخاصة، بل بالخلفاء العباسيّين بعامة، ويركّز على صورتهم الدّينية إذ وسمهم بأئمة الهدى الطّاهرين، من نسل النّبوّة، ومهبط الوحي، الذين عزّ بهم الإسلام،

(١) ينظر: أبو شامة، الروضتين، ٢٠٤/٢، الذهبي، ٣٦/٣٩.

(٢) الأصفهانيّ، اختصار سنا البرق الشامي، ص٦٠، وانظر سورة ق، أية ٣٧.

وقويت شوكته، فكانوا كالشمس نوراً، والسّحب جدواهم، تمّت بهم النّعمى في مصر، بعودة خلافتهم إليها، يقول(١):

خلفاءُ الهُدى ســـــراةُ بني العـــ ـبّاس والطّيبون أهـــلُ الطّهرِ
بهـمُ الدّينُ ظافـــــرٌ مستقيـــمٌ ظاهرٌ قـوّةً قـويُّ الظّهـــــرِ
كشموسِ الضُّحى كمثلِ بدورِ الـ ـتّمِّ كالسُّحبِ كالنّجومِ الزّهرِ
وتمـــامُ الحبـــورِ ما تـمّ منْ خُطـ ـبةِ خـــيرِ الخلائـفِ ابن الحَبْرِ
مَهبِطُ الـوحـــيِ بيتُهُ مَنْزِلُ الذّكْـ ـــرِ بِشَفـــعٍ من المثاني وَوَتْرِ

ويصف العماد الأصفهاني في قصيدة أخرى أرسلها على لسان نور الدّين زنكيّ إلى المستضيء بالله على تقوى الأخير وورعه، إذ جعله المؤتمن على أمور الدّين، الحافظ لشرعه ومنهاجه، فهو خليفة المصطفى، صلّى الله عليه وسلّم، وسرّ نبوّته، السّائر على نهجه، ونهج خلفائه الرّاشدين في تقواهم، وهداهم، وحيائهم، وعلمهم، وهو المجاهد الذي أرعب الأعداء، وأذيقه الموت ألواناً، يقول(٢):

ورأى الإلهُ المستضيءَ لِشَـرْعِهِ وعِبادِهِ نعـــمَ الأمينُ المؤتَمَـــنْ
سرُّ النّبـــوّةِ كامـنٌ فيـــهِ ومِنْ فطرِ الإمامةِ مُشرقٌ نورُ الفِطـنْ
تقوى أبي بَكرٍ ومِنْ عمر الهُدى وحياء عثمـانٍ وعلمُ أبي الحَسنْ
كـمْ منْ عـدوٍّ ميّتٍ في جِلْـدِهِ رُعباً وخوفـاً فهـوَ حيٌّ في كَفَنْ

ويشيد الشّاعر أبو محمّد بن الخشّاب بجود المستضيء بالله، فيقرنه بنيل مصر الذي منه تخصب البلاد، وينمو زرعها، ويعدّد فضائله الأخرى، ومنها نسبه إلى بيت النبوّة، فهو امتداد لشرعهم في الحكم، ولذا تفتخر به ملائكة السّماء، وبنو العبّاس، لأنّه يجسّد نور الله على البسيطة، وظلّه على الأرض، وصاحب أمره، ونهيه، وإرادته، بل هو صاحب شرعه،

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٢٠٠، خريدة القصر، ١/١٥-١٦، أبو شامة، الروضتين، ٢/٢٠٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ١/٢١٧.
(٢) الأصفهانيّ، الديوان، ص٤٢١.

المؤيّد منه، والوريث الشرعيّ للحكم، كما يبدو في قوله[١]:

وهلُ هو إلاّ النيلُ إن مدّ أخْصَبَتْ　　على قَدَرٍ منهُ ويُمحِلُها الجَـــزرُ
إمامٌ نَمَتْهُ الصّيدُ من آلِ هاشـــمٍ　　هُـمُ أمنـاءُ اللهِ الحُجَـــجُ العَشـرُ
بهِ تَفخرُ الأمـلاكُ في أفِـــقِ العُلا　　ويُزهَى بهِ العبّاسُ والحجّةُ الحَبـرُ
عليهِ من اللاهوتِ نـــــورٌ وهيبةٌ　　لها يُذعنُ العاصي ويُستَعبدُ الحرُّ
إذا شاءَ أمراً فالقضـــاءُ مؤيّـدٌ　　لما شاءَ والإقبـالُ يتبعُهُ النّصـــرُ
هو الظلُّ ظلُّ اللهِ في الأرضِ كلّها　　لهُ المُلكُ والأفضالُ والنّهي والأمرُ

ويركّز الشاعر ابن الخراساني على صفتي الهدى والجود لدى الخليفة المستضيء بالله، فبعودته إلى الحكم، هلّت أنوار الهدى، وأضاءت دياجير الظّلام بها، وأسبغت النّعمات كعطاء البحر على العباد، كما يبدو في قوله[٢]:

بالمستضيء أضاءتْ كلُّ داجيةٍ　　كأنّما أوقدتْ بين الوَرى سُرُجُ
أعطى من المالِ ما لمْ يُعطِهِ أحدٌ　　للهِ منهُ خِضَـمٌّ كلُّـــهُ لُجَـجُ

ويسمّ الشاعر أبو عبد الله بن شبيب الطّيبيّ الخليفة المستضيء بالمنقذ الذي قضى على الكفر في مصر، فكان هو كموسى النّبيّ، عليه السّلام، ونور الدين مثل هارون أنهيا جبروت فرعون، وقضيا عليه، يقول[٣]:

فأنقذَ مصراً مِنْ يدي كلِّ كافرٍ　　لِنُعماهُ لا عقلٌ لديهِ ولا دينُ
ولما مضى فرعونُها فرَّ عونُهـــا　　وأدرَكها موسى الكليمُ وهارونُ

وتتكرّر صورة الخليفة المنقذ من الكفر والضّلال في قصيدة أحد الشعراء التي مدح بها الخليفة المستضيء، وهنّأه بفتح مصر كما يبدو في قوله[٤]:

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٩/٢١.
٢- المصدر نفسه، ١٧٠/٢١.
(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، ١٨٩/١.
(٤) الأصفهاني، خريدة القصر، ١٩١/١.

لِيَهْنِكَ يا مولايَ فتحٌ تتابعتْ إليكَ بهِ خوضُ الرّكائبِ توجفُ
أخَذْتَ بهِ مصراً وقد حالَ دونَها من الشّركِ يأسٌ في لهى الحقِّ يقذفُ
فعادتْ بحَمْدِ اللهِ باسمِ إمامِنا تتيهُ على كلِّ البلادِ وتُشرفُ

وأشاد الأدباء **بنور الدّين زنكيّ**، ومن أبرزهم شاعره وكاتبه العماد الأصفهاني، الذي ركّز في أشعاره على صفات حاكمه الدّينية، وتغنّى بأيام حكمه، وبالإنجاز الذي تحقّق على يديه، وهو إزالة الدّولة الفاطميّة، فهو في رأيه الملك العادل، صاحب العزمات القويّة، والشّجاع، وهو ما يتجلّى في قوله[1]:

واستنارتْ عزائمُ الملكِ العا دلِ نور الدّينِ الهمامِ الأغرّ

وأنشأ العماد الأصفهاني قصيدة ميميّة عارض بها المتنبي، يهنئ فيها نور الدّين بفتح مصر، فيجعل جزءاً كبيراً منها للحديث عن خصال قائده، وأسبغ عليه صفات متعددة، وفي مقدمتها الدّينية، إذ جعل فتح مصر تأييداً من الله له، حمى به الإسلام، ونشر العدل بين العباد، ولمّ شمل الملك والأمّة بعد تفرّق وشقاق، وركّز على حبّه الجهاد، ومقارعة الأعداء، ووسمه لا يؤثر التنّعم في دنياه، ولا يعرف فيها راحة، وغايته فتح الثّغور، وهزيمة الكفر، يقول[2]:

بِمُلكِ مصرٍ أهنئُ مالكَ الأممِ فاسعدْ وأبشرْ بنصرِ الله عنْ أَمَمِ
أضحى بِعَدْلِكَ شملُ الملكِ مُلتئماً وهل بِعَدْلِكَ شيءٌ غيرُ ملتئمِ
يا فاعلَ الخيرِ عنْ طبْعٍ بلا كَلَفٍ ومولى العُرفِ عن خلقٍ بلا سَأمِ
وواملقاً ثَلمَ ثغرِ الكُفرِ تُعجبُهُ لا لثمَ ثغرِ شنيبٍ واضحٍ شَبِمِ
للهِ درُّكَ نورَ الدّين من مَلِكٍ بالعزْمِ مفتتحٍ بالنّصرِ مُختَتِمِ
آثارُ عَزمِكَ في الإسلامِ واضحةٌ وسرُّهُ لكَ بادٍ غيرُ مُكْتتمِ

(١) الأصفهانيّ، الديوان، ص٢٠٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٠/٢١.
(٢) الأصفهانيّ، الديوان، ص٣٨٠.

بما منَ العـدلِ والإحسـانِ تنشُرُهُ تخافُ ربّكَ خوفَ المذنبِ الأثِـمِ

ويذكّر العماد الأصفهاني بالحملات التي شنّها الجيش النوريّ تباعاً على الصليبيّين وحلفائهم الذين تعاونوا معهم في مصر، فيرسم صورة جميلة لخيوله السريعة، الخبيرة في القتال، ولمن عليها من جنود، انتقعت سيوفهم بدماء الأعداء الكفرة، حتّى تمكّن من قلوبهم الرّعب، واشتعل فيها اشتعال النّار في الهشيم، فأعادت للدّين هيبته ومكانته، وشفت من الصّليبيّين القلوب، فأضحوا أذلاء، مقيّدين بالأغلال، وأنقذت الإسلام من شرور الوزير الفاطميّ شاور وتآمره بعد أن سعى إلى تسليم البلاد إليهم، يقول(١):

أوردتَ مصرَ خيولَ النّصرِ عادمةً ثنيَ الأعنّةِ إقـداماً على اللُّجُـمِ
فأقبلـتْ في سحـابٍ منْ ذوابِلِـها وقُضْبِها بدمـاءِ الهـامِ مُنسَجِـمِ
تمكّنَ الرُّعبُ في قلبِ العـدوّ بها تَمَكُّنَ النّـارِ بالإحـراقِ بالفَحِـمِ
سَرَتْ لِتَقْطَعَ ما للكُفرِ من سَبَبٍ واهٍ وتوصلَ مـا للدّينِ من رَحِـمِ
وجاعـلاتٍ من الإفـرنجِ غلّهُمُ والقيدَ في موضعِ الأطواقِ والحُزُمِ
لقدْ شَفَتْ غلَّـةَ الإسـلامِ وانْتَقَمتْ منَ العدوّ بحـدِّ الصّـارمِ الحَـذَمِ
أعانَهَـا اللهُ في إطفـاءِ جَمْرِ أذى منْ شرّ شاورَ في الإسلامِ مُضطرمِ

ويستمر العماد الأصفهاني بالإشادة بنور الدّين زنكيّ، وبعدله، وكرمه، والتزامه بشرع الله، وبدوره في إنقاذ مصر، وتخليصها من معاناتها الشّديدة إبان الحكم الفاطميّ، ويوظّف للتّعبير عن ذلك المثل الشّعبيّ (لحم على وضم)، للدّلالة على سوء حالها، ويرسم صورة حزينة للنّيل الذي كان يجري قبل فتحها على خجل من غير هدى، يقول(٢):

للهِ درُّكَ نورَ الدّينِ من ملـكٍ عَدْلٍ لحفظِ أمورِ الدّينِ مُلتزمِ
كانتْ ولايةُ مصرٍ قبلَ عزّتها بكشفِ دولَتِها لحماً على وَضَمِ

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٣٨١.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٨٢.

فالنيلُ مُلتطمٌ جارٍ على خَجَلٍ جاراً لبحرِ نوالٍ منكَ مُلتطمِ[١]

ولعلّ كثرة دوران الصّورة الدّينية على لسان الشّعراء هدفها إعلاميّ، وإضفاء شرعيّة على الحكّام الجدد بعامّة، فلطالما كان الدّين وسيلة لإخضاع الشّعوب، وجعلهم يقبلون الوضع الجديد، وينبغي ألا ننسى قناعة الشّعراء أنفسهم، وأفكارهم التي تنفر من العقائد الإسماعيليّة، وتؤمن بأحقية بني العبّاس في الخلافة، وكذلك التّركيز على صفتي الشّجاعة والكرم، فهمّ العباد في نهاية المطاف من يوفّر لهم أسباب الحياة، ويحقّق العدالة، ويحميهم من أعدائهم، فتطمئن بهم البيوت والنّفوس.

وحظي القائد **صلاح الدين يوسف بن أيّوب** بمديح الأدباء في أدبهم الذي خلّدوا فيه فتح مصر الثاني، فقد كان الفضل الأكبر في ذلك، وفي تخليص مصر، والعالم الإسلاميّ من الحكم الفاطميّ، ولذا تغنوا بشخصيته، وبيّنوا دوره العظيم في تلك الحقبة التاريخية. وممّن أشادوا به العماد الأصفهانيّ إذ قرن بينه وبين نبيّ الله يوسف الذي مكّنه الله من مصر بعد أن أزاح فرعونها، وأعاد الحقّ إلى نصابه، وأمات الباطل، وأعاد الخطبة لبني العبّاس، ولمّ شمل ملكه وملكهم، يقول[٢]:

وعصرُ فرعونِها انقضى وغدا يوسُفُها في الأمورِ مُحتكماً
وصارَ شملُ الصّلاحِ مُلتئماً بها وعِقدُ السّدادِ مُنتَظما
لما غَدا مُعلناً شعارَ بني الـ ـعبّاسِ حقّاً والباطلُ اكتُتِما

وحينَ هنّا العماد الأصفهاني نور الدين بفتح مصر، مدح نائبه فيها صلاح الدّين الأيوبيّ، فأشاد بشجاعته، وقرنها بشجاعة عنترة العبسيّ، وبكرمه إذ جعله مثل هَرِم بن سنان الذي كان واحداً ممّن دفعوا ديات القتلى، وأوقفوا الحرب بين عبس وذبيان في الجاهليّة، يقول[٣]:

(١) لمزيد من الأمثلة انظر الأصفهانيّ، الديوان، ص٤٢١.
(٢) الأصفهاني، الديوان، ص٣٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٨٢.

أَنَبْتَ عنكَ بها قَرْما[١] ينوبُ بها في البأسِ عن عنترٍ وفي الجود عن هَرِمِ

وتظهر الرّسائل الفنيّة التي كُتبت بعد الفتح سعي صلاح الدين الأيوبيّ لأخذ الشرعية لحكمه في مصر، إذ طلب إلى الأديب القاضي الفاضل أن يكتب رسالة يُضمنها هذه الرّغبة، ويبيّن فيها الأسباب الدّاعية إليها، فصاغها الفاضل بأسلوبه، ومزجها بمديحه مولاه صلاح الدّين الأيوبيّ، فبيّن جهاده المتواصل في سبيل الله، ورغبته في إعادة الحكم للعباسيّين، وأشاد بنصره الذي عجز عنه كثيرون قبله، وبيّن ما نتج عنه من جمع شمل المسلمين، وهذا يحتاج من الخلافة العباسيّة إلى الدّعم والمؤازرة، وإضفاء الشّرعيّة عليه، وهو ما بدا في قوله[٢]:

" ولا خفاءَ على المجلسِ الصّاحبيّ أنّ مَنْ شدَّ عقدَ خلافةٍ، وحلَّ عقدَ خلاف، وقام بدولةٍ وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلافُ والأسلافُ، فإنّه مُفتقرٌ إلى أن يُشكرَ ما نصحَ، ويُقلّد مَنْ فتحَ، ويُبلّغَ ما اقترحَ، ويُقدّمَ حقّه ولا يُطّرح، ويُقرّبَ مكانهُ إن نزح، وتأتيه التّشريفاتُ الشّريفةُ، وتتواصلُ إليهِ أمداداتٌ التّقويات الجليلة اللّطيفة، وتُلبّى دعوتُهُ بما أقام من دعوةٍ، وتُوصلَ غزوتُه بما وصلَ من غزوةٍ، وتُرفعَ دونه الحُجبُ المعترضِة، وتُرْسَلَ إليه السّحبُ المرَوّضَة[٣]، فكلّ ذلك تعودُ عوائدهُ، وتبدو فوائدُهُ بالدّولة التي كشفَ وجهَهُ لِنَصرِها، وجرّدَ سيفَهُ لرفعِ منارِها، وقد أتى البيوتَ من أبوابِها، وطلبَ النّجعةَ[٤] من سحابِها".

ومدح الشّعراء بني أيّوب بعامة، وبيّنوا ما بذلوه من جهد عسكري لفتح مصر، وإزالة الحكم الفاطميّ منها، ما جعل البلدان الأخرى تحسدها على ذلك، وفي مقدمتها بغداد، عاصمة الخلافة، وهو ما يبدو في قول الشّاعر العَرْقلة الكلبيّ[٥]:

(١) بمعنى السيد، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "قرم".

(٢) أبو شامة، الروضتين، ١٩٦/٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٧٩/٣٩، الصفدي، ٣٦٨/١٧.

(٣) كناية عن الخيول.

(٤) هنا بمعنى العون والمساعدة والعطايا.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ٢١٣/٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢٠/٢١، الدواداري، كنز الدرر، ٤٩/٧، الصفدي، =

أصبحَ المُلْكُ بعـــد آلِ عليٍّ مُشْرِقاً بالملوكِ من آل شاذي
وغدا الشرقُ يحسدُ الغربَ للقو مِ ومصرٌ تزهو على بغـــدادِ
ما حَـــووها إلاّ بِحـــزمٍ وعَزمٍ وصليـــلِ الفـولاذِ بالفـــولاذِ

واستمرّ تمجيد ملوك بني أيوب، والثناء على دورهم في فتح مصر إلى ما بعد الحقبة الصّلاحيّة، فهذا الشاعر مجد الدّين بن الظّهير الإربليّ يشيد بدورهم في إعادة الخلافة العبّاسيّة الشرعيّة بما تمثله من حقّ وهدى إلى مصر، حين زيّنوا منابرها بأسماء خلفائها، وهو ما يبدو في قوله(١):

وهمْ رَجّعوا مصراً إلى دعوةِ الهدى بِعزمٍ ورأيٍ في العظائمِ مُحصِد
وهمْ شيّدوا رُكنَ الخلافـةِ بالـذي أعـادوهُ من حقٍّ طريفٍ ومُتلدِ
وهمْ شرّفوا قـدْرَ المنـــابِرِ باسْمِهـا وذِكْرٍ مَنـوطٍ بالرّســولِ مُمَجَّدِ

وبرزت **صورة سلبيّة** لصلاح الدّين الأيوبيّ في بعض الأشعار التي واكبت سقوط الدّولة الفاطميّة، وعبّرت عن نقمة قائلها عليه، وهو ما تجلّى في قصيدة الشّاعر عمارة اليمنيّ في رثاء هذه الدّولة، فقد كان هذا الشاعر مقرّباً من الفاطميّين، حظي بمكانة كبيرة لديهم، وعاش في ترف ورفاهية في عهدهم، افتقدها بعد زوال دولته، ولذا رثاهم بحرقة وأسى، وكان متحاملاً على صلاح الدّين الذي غيّر حياته، وأنهى مصدر رزقه وسعادته، صحيح أنّه لم يذكره اسماً، ولكن ما حملته قصيدته من معان وصور تؤكّد ذلك، فهو يبيّن أنّ ما فعله صلاح الدّين بنسل عليّ، أي الفاطميّين، من سبي، واستيلاء على الدّولة وغنائمها، لا يفرق عمّا كان سيفعله الصليبيّون لو قدّر لهم احتلال مصر، يقول(٢):

مـاذا ترى كانـتِ الإفرنـــجُ فاعلـــةً في نسْلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ علـي

=

الوافي بالوفيات، ٣٦٧/١٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١٥/١٤.

(١) أبو شامة، الروضتين، ١٩٧/٢-١٩٨.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٣/١، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٨٠/٣٩، الصفدي، الوافي بالوفيات٣٦٩/١٧.

هل كانَ في الأمر شيءٌ غيرُ قسمةِ ما مَلَكْتُمُ بينَ حُكمِ السّبيِ والنّفَلِ

ويظهر تحامل الشّاعر على صلاح الدّين وجيشه، وعلى التّدابير القاسية التي اتخذوها عقب إزالتهم الدّولة الفاطميّة إذ وسمهم بالأعداء، وعبّر عن خوفه منهم حين كتم مشاعره أن تظهر إلى العلن، وهو يمرّ أمام قصور حكامه السّابقين، ويتمنّى الشّاعر عودتهم إلى الحكم، وبيّن أنّ هذا الحكم الجديد ما هو إلا عقبة في وجه الدّهر وعدله، وأنّ مصير من اعتدى عليهم، وأبغضهم، ورفض حكمهم النّار، والحرمان من ورود حوض الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، للشّرب منه، وهو جزء من إيمان الشّاعر بأحقيّتهم في الخلافة، فقال(١):

مَرَرْتُ بالقصرِ والأركــانُ خاليـةٌ منَ الوفــودِ وكانَتْ قِبلــةَ القُبلِ
فملتُ عنها بوجهي خوفَ مُنتقدٍ من الأعــادي ووجْــهُ الودِّ لم يملِ
وربّما عــــادتِ الدّنيا بمعقلِكــمْ مِنْكُمْ وأضحَتْ بكمْ محلولةَ العُقَلِ
واللهِ لا فازَ يومَ الحشرِ مُبْغِضِكُمْ ولا نجا من عــذابِ اللهِ غيرُ ولي
ولا سُقي الماءَ من حرٍّ ومنْ ظَمَـأ منْ كفِّ خيرِ البرايا خــاتمِ الرُّسُلِ

د. صورة الفاطميّن والصّليبيّين

لقد أخذ الحديث عن الفاطميّين مساحة كبيرة في النّصوص الأدبيّة التي واكبت فتح مصر الثّاني، عبّر الأدباء فيها عن موقفهم من حكم هذه الدّولة، ومن فكرها ورجالاتها، وبخاصّة العاضد بالله آخر حكّامها، وصوّروا أثر الفتح ونتائجه عليها، وكانت المعاني التي عبّروا عنها في معظمها سلبية عدا ما تضمّنته قصيدة عمارة اليمني في رثائها، فقد حرص الشّاعر على رسم صورة إيجابيّة مثاليّة لهذه الدّولة، ذلك أنّ رثاءه لها كان رثاء لنفسه، وبكاء على ماض جميل عاشه في ظلّها، إضافة إلى تعبيره عن إيمانه العميق بمعتقداتها الفكرية التي كان تبنّاها بعد أن كان فقيهاً شافعيّ المذهب(٢)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٤/١، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٦٩/١٧.

(٢) ذو النون المصري، عمارة اليمني، ص٧٩، وانظر ٧٣-٨٠.

أما صورتهم السّلبيّة، فبرزت بجلاء في النّصوص الأدبيّة، التي عن مصيرهم الذي آلوا إليه عقب زوال دولتهم، وعن ادّعائهم الخلافة، ولذا كرّروا لفظة الدّعي للتّعبير عن العاضد ومَنْ كان قبله من الحكّام، وهو ما يبدو في شعر العماد الأصفهانيّ الذي وصف العاضد، وحالة الضعف التي آل إليها بعد زوال ملكه، وما جرى عليه من حجر وحصر على حدّ تعبيره، يقول(١):

وتَرَكنا الدّعيَّ يدعو ثُبوراً وهو بالذلِّ تحتَ حَجرٍ وحَصْرِ

ويشير العماد الأصفهانيّ إلى فكرة مهمّة تداولها من أنكروا نسب الفاطميّين، وهي أنّ أصولهم تعود إلى اليهود، وأن غايتهم هي ضرب الإسلام وأفكاره، وإدخال أفكار جديدة عليه، وهو ما يبدو في قوله مصوّراً ما فعلته خيول الأيوبيّين بالفاطميين(٢):

أذاعتْ بمصرَ لداعي الهُداةِ وانتقمتْ من دعيِّ اليهودِ

ويضيف شاعرٌ آخر أنّ هؤلاء الفاطميّين ما هم إلا مزيج من معتقدات متنوعة: زنادقة، وباطنية، وشيعة، ومجوس، ليس لفكرهم علاقة بالحق والصّلاح، مذهبهم التقيّة، يظهرون عكس ما يبطنون ليجمّلوا صورتهم أمام عامة النّاس، ولا يعترف الشّاعر بنسبهم إلى الفاطميّين بل يطلق على دولتهم دولة الكفر وبني عبيد، وهو ما يتجلّى في قوله مادحاً الأيّوبيّين، مشيداً بدورهم في إزالة الدّولة الفاطميّة(٣):

ألستُمْ مُزيلي دولةِ الكُفرِ من بني عُبيدٍ بمصرٍ إنّ هـذا هـو الكُفـرُ
زنادقـــةٌ شيعيّـــةٌ باطنيّـــةٌ مَجوسٌ وما في الصالحين لهمْ أصْلُ
يُسرُّونَ كُفـــراً يُظهـرونَ تشيُّعاً لِيَسْتَتِروا شيئـاً وعمَّهُـمُ الجَهـــلُ

ويكرّر العماد الأصفهاني تصويره العاضد مدّعياً الخلافة، ويركّز على مصيره الذّليل بعد أن قلبت له الأيام ظهر المجنّ، وما ذلك لأنّه أدّعى أمراً ليس من حقّه، كما يبدو في

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٩٨-١٩٩، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢١٦/٢١.
(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٧٩/٣٩.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١٦/١٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢٣٥/١.

قوله[١]:

والّذي يدّعي الإمامةَ بالقـا　　هرةِ انحطّ في حَضيضِ القَهْـرِ
خانهُ الدّهرُ في مُناهُ ولا يط　　ـمعُ ذو اللّبِّ في وفاء الدّهرِ
لا يُقـــــامُ الإمـامُ إلا بحـقٍّ　　وما تُحـــازُ الحَسناءُ إلاّ بِمَهْرِ

وتبدو صورة الفاطميّين الدّينية معاكسة تماماً لما وسمَ به قادة المسلمين، ولخلافة بني العبّاس، فقد وسمهم الأدباء، إضافة إلى ادّعائهم الخلافة، مفسدين في الأرض، ولذا استحقوا مصيراً كمصير الأقوام السّابقة الذين عصوا الله، وعباده المصْطَفين، وهو ما يتجلّى في قول العماد الأصفهانيّ يمدح صلاح الدّين الأيوبيّ[٢]:

أمّا المفسِدونَ بمصرَ عَصَوْكَ　　وهذي ديارهمُ اليومَ قورُ[٣]
أمّا الأدعياءُ بها إذ نَشَطْتَ　　لإبعادِهمْ زالَ منكَ الفُتورُ

ويبيّن العماد الأصفهاني أنّ نهاية الفاطميّين أغلقت باب الكفر والشرك في مصر، وزالت منها البدع والأهواء، ويستحضر هنا قصة نبيّ الله يوسف، عليه السلام، وصراعه مع فرعون ليبيّن طبيعة الصّراع بين صلاح الدين الأيوبي والعاضد، فهو صراع دينيّ انتهى بالقضاء على الضلال الذي يمثّله فرعون، وبنشر الحقّ في ربوع مصر، يقول[٤]:

توفّي العاضـدُ الـدّعيُّ فمـا　　يَفتحُ ذو بِدعـةٍ بمصـرَ فمـا
وعصرُ فِرعونِها انقضى وغدا　　يوسُفُهـا في الأمـورِ مُحتَكما
وانْطَفَأتْ جمـرةُ الغُـواةِ وقد　　باحَ منَ الشّركِ كلُّ ما اضطُرما

ويبدو هذا الصّراع الدّيني جليّاً في القصيدة ذاتها للعماد الأصفهانيّ، حين صوّر انتصار صاحب الحقّ والهدى، وهو صلاح الدين الأيوبيّ على أهل الضّلال والإلحاد في

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٢٠٠، أبو شامة، الروضتين، ٢٠٦/٢-٢٠٧.
(٢) الأصفهاني، الديوان، ص١٩٤.
(٣) أي نزل بها الدّمار. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (قور).
(٤) الأصفهاني، الديوان، ص٣٧٦، أبو شامة، الروضتين، ١٩٤/٢-١٩٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٩/١٤.

مصر، يقول[١]:

وباتَ داعيَ التّوحيدِ مُنتَصِراً ومنْ دُعاةِ الإشراكِ مُنتَقماً
وظلَّ أهلُ الضّلالِ في ظُلَـلٍ داجيَةٍ منْ غَيابَـةٍ وعَمى

ويتناصّ أبو محمّد بن الخشاب مع قصة فرعون وموسى، عليه السلام، فأسبغ على العاضد صورة فرعون في تجبّره، وتحكّمه في مصر، إذ غرّته قوّته، وما ملك من خيراتها، حتى أورده غروره وطغيانه وإعراضه المهالك، فغرق في البحر على يد الخليفة المستضيء بالله الذي منحه شخصية نبي الله موسى، عليه، السلام، دلالة على طبيعة الصّراع، يقول[٢]:

وقدْ كانَ فرعونٌ يُدلُّ بِمُلْكِها ويعروهُ كِبْرٌ أنْ جرى تحتها نهـرُ
فأوبَقَـهُ طُغيـــانُـهُ وعُتُـوُّهُ وأرداهُ في اليـــمِّ التَّجَبُّرُ والكِبـرُ
وقالَ لموسى إذ أتَـاهُ بآيـــةٍ هي الآيةُ الكُبرى ألا إنّ ذا سِحرُ

ويكّرر أبو الفرج بن الجوزي استحضار قصّة موسى وفرعون للتّعبير عن المعاني السّابقة ذاتها، وعن انتصار الحقّ على الباطل في مصر بل في كلّ مكان تواجد فيه الحكم الفاطميّ، يقول في رسالته (النّصر على مصر)[٣]:

"ولما بانتِ البوارقُ بمصرَ من فرعونها زمناً طويلاً، مدّ لهم أمد البغيِ، فحملوا منه حملاً ثقيلاً، فلمّا نهضت خلافةُ الإمام المستضيء بأمر الله بالحقّ سدّتْ في وجوه الظّلمةِ سبيلاً، وخربت قصر مصر بالظّلم، وأعادت باغي البغيِ قتيلاً، وبادتْ شرقاً وغرباً، وقُرباً وبُعداً".

ويجعل أبو الفرج بن الجوزي من مصير العاضد وشيعة مصر عبرة لرافضة بلده بغداد الذين درجوا على إظهار شعائرهم الباطلة في المهديّ، وفي شتم الصحابة، رضوان الله عليهم، وكانوا يستقوون بدولتهم في مصر، ويمنّون النّفس بها، ولكنها الآن بادت وزالت، وعليهم أن

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٣٧٦-٣٧٧، أبو شامة الروضتين، ١٩٥/٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٩/١٤.
(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٨/٢١.
(٣) المصدر نفسه، ١٧١/٢١.

يعودوا إلى رشدهم، وأن يقدّموا الطّاعةَ والولاءَ للعبّاسيّين، يقول(١):

" ثمّ تبع أقوامٌ يُسَمّون الرّافضة، يثلبون الصّحابةَ، ولا يدينونَ بطاعةِ الخلافةِ، ومعنا في بلدتنا منهم خلقٌ كثير، ولم نطّلعْ منهم على هفوةٍ وعَثرة، وكلّما رأوا من أنوار الدّولة العبّاسيّة ما يُخجلُ الشّمسَ والقمرَ، سلّوا نفوسهم بساكني مصر والمنتظر، فليتهم علموا أنّ صاحبَ مصر قد محقته آفة، وأنّ المنتظر حديث خرافة".

ويقف القاضي الفاضل على أسباب هلاك الفاطميّين، ويرجع ذلك إلى معتقداتهم الباطلة، فوسمهم بشيع الضّلال الذين اتّخذوا من عباد الله إلهاً يطيعونه، ونشروا الفرقة في عقيدة المسلمين، فأهلكهم الله على يد عبده صلاح الدّين، الذي أبادهم، وفرّق جموعهم، وأذلّهم، وضيّق عليهم الخناق، ومحا أسماءهم من على منابرِ مصر، يقول في رسالة كتبها عن صلاح الدّين إلى وزير بغداد(٢):

"والمذلّةُ في شِيَعِ الضّلالِ شائعة، ذلك بأنّهم اتّخذوا عبادَ اللهِ من دونِهِ أولياءً، وسمّوا أعداء الله أصفياء، وتقطّعوا أمرهم بينهم شِيَعاً، وفرّقوا أمرَ الأمّةِ وكان مُجتَمعاً، وكذّبوا بالنارِ، فَعُجّلتْ لهم نار الحُتوف، ونثرتْ أقلامُ الظُّبى حروفَ رؤوسِهم نثر الأقلامِ للحروفِ، ومُزّقوا كلَّ مُمزَّقٍ، وأُخذَ منهم كلُّ مُخنّق، وقطع دابرهم، ووعظَ آسيهم غابرَهم، ورَغِمَتْ أنوفُهم ومنابرُهم، وحُقّتْ عليهمْ الكلمةُ تشريداً وقتلاً، وتمّت كلماتُ ربّكَ صِدقاً وعدلاً".

ويضيف العماد الأصفهاني صورة أخرى لما فعله صلاح الدّين الأيوبيّ وجيشه بالفاطميّين في مصر، فقد وسمهم بالأعداء، ولذا سبوا نساءهم، وانتهكوا حريمهم، ونهبت قصورهم وأخربت، وقسمت أموالها، فمات العاضد لذلك همّاً وغمّاً، يقول(٣):

عادَ حريمُ الأعداءِ مُنتهكَ الـ حِمى وفيء الطُّغاةِ مُقتسماً
قصورُ أهلِ القُصـــورِ أخْرَبَها عامرُ بيتٍ من الكمالِ سَما

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢١/١٧١.
(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢/١٩٦.
(٣) الأصفهاني، الديوان، ص٣٧٧، أبو شامة، الروضتين، ٢/١٥٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/٢١٠.

أزْعَجَ بعدَ السّكـونِ ساكنَها ومـاتَ ذُلاً وأنْفُـهُ رُغمـــا

ولم يكتف الشّعراء بتقديم صورة للفاطميّين بل عرّجوا على **الصّليبيّين** حلفاء هذه الدّولة، الذين بزوالها عمّهم الخوف من صلاح الدّين، وفقدوا كلّ أمل في دخول مصر واحتلالها، وهو ما عبّر عنه العماد الأصفهاني إذ كنّى عنهم ببني الأصفر إشارة إلى شُقرة وجوههم وبشرتهم، يقول(١):

وبنو الأصفرِ القوامصُ منهُ بوجوهٍ من المخافةِ صُفرِ

ويبيّن القاضي الفاضل في رسالته التي كتبها إلى وزير بغداد يبشّره بالفتح أنّ ما جرى للفاطميّين من سوء حال، وانقلاب أحوال، وهزيمة نكراء ليس ببعيد عن طغاة الصّليبيّين، وأنّه سيشملهم عمّا قريب: يقول(٢):

" وليس السّيفُ عمّن سواهم من كفّار الفرنجِ بصائمٍ، ولا اللّيلُ عن سيرٍ إليهمْ بهائِم".

أمّا صورة الفاطميّين **الإيجابيّة**، فجاءت في قصيدة عمارة اليمنيّ في رثائهم، ففيها بثّ مشاعر الحبّ لأهل نعمته، فرثى ذاته، وتحسّر عليهم، واسترجع أيامهم، ونعى للبشريّة جمعاء ذهابهم، وذهاب مكارمهم، وكأنه بذلك يقرن بين مرحلتين عاشهما: مرحلة التّرف في ظلّهم، ومرحلة البؤس في عهد صلاح الدّين، فبموتهم توقّف المجد، وشلّت يده، وأضحى الدّهر عاطلاً من زينته، وأضحى ذليلاً، وتعطّل المعروف والخير الذي عمّ البريّة أيّامهم، بل جعل ذهابهم مصيبة كبرى حلّت على الدّنيا، ويتجلى ذلك في قوله صابّاً جام غضبه على الدهر(٣):

رَمَيْتَ يا دهرُ كفّ المجدِ بالشّللِ وجيدَه بعد حُسنِ الحَلْيِ بالعَطَلِ

(١) الأصفهاني، الديوان، ص٢٠٠، أبو شامة، الروضتين، ٢٩٦/٢.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ١٩٦/٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٧٩/٣٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٦٨.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٩٩/٢٢-٢٠٠، أبو شامة، الروضتين، ٢٩٤/٢، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ١٣٣/٢، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٦٨/١٧.

سعيتَ في منهجِ الرّأي العَثورِ فإنْ قَدَرْتَ منْ عَثَراتِ الدّهرِ فاستقلِ
جَدَّعْتَ مارِنَك الأقْنى فأنْفكَ لا ينفكُّ ما بينَ أمْرِ الشَّيْنِ والخَجَلِ
هدّمتَ قاعدةَ المعروفِ عن عَجَلٍ سُقيتَ مُهلاً أما تمشي على مَهَلِ
لهفي ولهفَ بني الأيـــامِ قاطبةً على فجيعتهـــا في أكـرمِ الـدّولِ

ثمّ يقف في أبيات كثيرة على مكارمهم، فيرسم صورة مثاليّة لها، وأنّها كانت عامّة شاملة السّنة، والشّيعة، واليهود، والنّصارى، والضّيوف الزّائرين بل الأرض كلّها، وعدّد مواسمهم التي كانوا يجودون فيها عطاياهم: يوم الخليج، وعيد الغدير، ورمضان، وعيد الفطر والأضحى، وأول العام، وبداية كلّ فصل من فصول السّنة، هذا فضلا عن الأوقاف التي خصّصوها لخدمة المساجد والعلماء، ودار الضّيافة التي كانت تستقبل الزّائرين، وتخرج منها الهدايا والصِّلات لجميع أرجاء الأرض، وهو في ذلك كلّه يقارن بين حقبتهم الزّاهرة، وحقبة صلاح الدّين التي فُقدت عطاياها، على حدّ تعبيره، ويوحي للقارئ أنّ كلّ أيامهم على مدار العام كانت مكارم، وهبات، ومنافع للعباد، كما يبدو في قوله[1]:

أبكي على ما تراءى مِنْ مَكارِمِكـمْ حالَ الزّمـــانُ عليها وهيَ لـم تَحُلِ
دارُ الضّيافةِ كـانتْ أنـسَ وافدِكِـــمْ واليــومَ أوحشُ منْ رَسْمٍ ومنْ طَلَل
وكسوةُ النّاسِ في الفَصْلينِ قدْ دَرَسَتْ ورثُّ منهـــا جديـــدٌ عنهُـمُ وبَلي
وأوّلُ العـامِ والعيــدينِ كـــمْ لَكُـــمُ فيهـنَّ مِنْ وَبْلِ جودٍ ليسَ بالوَشَلِ
وموسمٌ كان في يـومِ الخليـــجِ لكـــمْ يأتي تجمُّلُكـمْ فيـــهِ على الجُمَـــلِ
والأرضُ تهتزُّ في عيد الغديـرِ كمـــا يهتزُّ ما بينَ قصريكُم من الأسَـلِ
والخيلُ تُعـرَضُ في وشـيٍ وفي شِيَـــةٍ مثلَ العرائسِ في حليٍ وفي حلـــلِ
وما حَمَلْتُمْ قرى الأضيافِ من سَعةِ الـ أطباقِ إلاّ على الأكتافِ والعجَـلِ
ومـا خَصَصتُمْ ببـــرٍّ أهـــلَ ملّتِكـــمْ حتّى عَمَمْتُم بهِ الأقصى من الْمِلَلِ

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٠٠/٢٢، أبو شامة، الروضتين، ٢٩٥/٢، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٦٩/١٧.

كانتْ رواتِبُكـــمْ للـذّمّتينِ وللضـ ـضيفِ المقيمِ وللطّــاري من الرُّسلِ
ثمّ الطّـرازِ بتنّــيسِ التي عَظُمــتْ منها الصّلاتُ لأهلِ الأرضِ والدُّوَلِ
وللجـوامعِ من أحباسِكُـــمْ نِعَـــمٌ لمنْ تصــدّرَ في علــمٍ وفي عَمَـــلِ

والأمر اللافت في قصيدته هذه هو الحضور الكبير للخطاب الإسماعيليّ فيها، وعمق الإيمان الذي أبداه الشاعر فيه، وتصريحه بذلك، وبخاصة في أبياتها الأخيرة، ولعلّ ذلك كلّه هو ما دفع المؤرّخين إلى القول بأن هذه القصيدة كانت من أسباب القبض عليه وقتله، فهذا سبط ابن الجوزي يقول عن أسباب قتله: "أنّه رثى أهل القصر بمرثية عرّض فيها بصلاح الدّين"(١)، وعدّها أبو شامة المقدسيّ دليلاً على تغيّر مذهبه السّنيّ الشّافعيّ، وتبدّل معتقده، وسعيه لإسقاط الدّولة الصّلاحية، والتآمر مع الفرنج لذلك، ولهذا كان قتله يقول:" وهذه القصيدة تحقّق ما رمى به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج، والخوض في فساد الدولة بل الملّة، وتوضح أعذار السّلطان في قتله"(٢). (أبو شامة، ١٩٩٧م،٢/٢٩٤)، ولفتت هذه القصيدة نظر صلاح الدّين الصّفدي، حتى ظنّ أنّ الأبيات الأخيرة منها وُضِعت على عمارة، ولكنّه عدل عن ذلك ليبين أنها تتناسب مع طبيعة شعره، فقال: "قلت: أنا شديد التعجّب من الفقيه عمارة، وهو من أهل السّنة، معروف بذلك في أيامهم لم يتشيّع، وكيف رثاهم بهذه المرثيّة خصوصاً في الأبيات الأخيرة، وكأنها أُلْحِقَتْ في هذه القصيدة، أو عُمِلَت على لسانه حتى أغرى صلاح الدّين بقتله، ولكنّ القصيدة من نَفَسِهِ والله أعلم"(٣).

يبدو الشّاعر معترفاً بنسب الفاطميّين: نسبتهم إلى فاطمة الزّهراء، ابنة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وإلى وزوجها عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو ما يبدو في قوله(٤):

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٩٩/٢٢.
(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢٩٤/٢.
(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٦٨/١٧، ٣٦٩.
(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٣/١، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٧٠/١٧.

يا عاذلي في هَوَى أبناءِ فاطمةٍ　　لكَ الملامةُ إن قصّرْتَ في عَذْلي
ترى ماذا كانتِ الإفرنجُ فاعلةً　　في نَسْلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ علي

ويزيد على ذلك إذ دخل في لبّ عقيدتهم، وعبّر عن قناعته بها، فهم جزء من النّور الإلهيّ، هذا النّور الذي يؤهلهم لأن تكون طاعتهم واجبة على الخلق، ولكي يكون ولاؤهم أصلاً من أصول الإيمان ثم العمل بمقتضى هذا الإيمان، لأنّ فيهم يتجسّد الهدى، وبالتزامه تفتح له ولغيره طريق النجاة، والفوز بالجنّة، يقول(١):

أئمتي وهُـــداتي والذّخيـــرةُ لـي　　إذا ارتهنـــتُ بما قـدّمتُ من عملِ
بابُ النّجـاةِ فهـمْ دُنيا وآخـــرةً　　وحبُّهـمُ فهـو أصـــلُ الدّينِ والعمـلِ
نورُ الهُدى ومَصَابيحُ الدُّجى ومحَـ　　ـلُّ الغَيْثِ إن وَنَتِ الأنْواءُ في المحلِ
أئمّةٌ خلقوا نُـــوراً ونُـــورُهُـمُ　　عن خالـصِ نـــورِ اللهِ لـــم يَفـلِ

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ١/٢١٥-٢١٦، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٧/٣٧٠.

نتائج البحث

بعد هذه الجولة في صدى فتح مصر الثّاني وإزالة الدّولة الفاطميّة في الأدب العربيّ، يمكن تسجيل بعض النّتائج، وهي الآتي:

- كان لهذا الفتح صداه الكبير في الأدب العربيّ: شعره ونثره، فقد تبيّن من البحث أنه كُتب فيه عدد كبير من الرّسائل المبشّرة به، أو التي تبادلت التّهاني مع القادة والولاة المسلمين، وصل منها خمسة رسائل. أما الشّعر، فكُتبتْ فيه سبع قصائد، بعد الفتح مباشرة، ستّة منها أثنتْ عليه، وخلّدت هذا الإنجاز، وقصيدة واحدة للشّاعر عمارة اليمنيّ، رثت الدّولة الفاطميّة، وبكتْ مجدها الزّائل، هذا فضلاً عن عدد من المقطوعات التي خلّدته أو تنبّأت به، أو مدحتْ الأيوبيّين بعد صلاح الدّين، تشيد بهذا الإنجاز، وتعدّه من مفاخر الدّولة الأيوبيّة. وأبرز الأدباء الذين خلّدوه عماد الدّين الأصفهانيّ، والقاضي الفاضل عبد الرّحيم البَيْسانيّ.
- حملتْ النّصوص الأدبيّة مضامين متعدّدة، أبرزها التّنبؤ بالفتح، وصوّرت في معظمها عظمته ونتائجه المختلفة، ومدحت قادته، ورسمت صورة سلبية للفاطميّين والصّليبيين، إلا قصيدة عمارة اليمنيّ التي أثنى فيها على الفاطميين وفكرهم ومكارمهم، وهجا صلاح الدّين الأيوبيّ.
- تبيّن من البحث أن التّنبؤ بالفتح كان قبل حدوثه باثنتي عشرة سنة في منام لأحد سكّان بغداد، كان له الأثر في الشّعر العربيّ، وصفه الشّعراء، وعدّوه بشرى خير، ومصدر تفاؤل به. أمّا الدّعوة إلى الفتح، فتبيّن أنها برزت في الشّعر العربيّ منذ دخول الجيش النّوريّ إلى مصر تحت قيادة أسد الدّين شيركوه، وصلاح الدّين الأيوبيّ، وتحديداً منذ سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م.
- رسم الأدباء صورة لفتح مصر الثّاني، ووقفوا على نتائجه الاجتماعيّة والدّينيّة، إذ تحدّثوا عن عظمته، فوصفوه فتحاً بِكْراً، تفرّد به زمانهم وقادته، وعدّوه نعمة عظيمة من الله، أكرم بها المسلمين، ووحّد صفوفهم ودولهم، وأعاد الحقّ إلى نصابه،

ويقصدون بذلك الخلافة العبّاسيّة، وقضى على الكفر والضّلال والبدع والأهواء، وعاد علم الجهاد خفّاقاً في الميادين كلّها، وجعلوه مقدّمة لزوال الخوف، والفقر، والغمّ والهمّ عن مصر وبقية بلدان المسلمين، ولذا سُرّت به المغرب واليمن والشّام.

- ركّزت النّصوص الأدبية على مديح القادة المسلمين الذين كان لهم دور كبير في هذا الإنجاز، وبخاصة الخليفة العباسيّ المستضيء بالله، ونور الدين زنكيّ، وصلاح الدّين الأيوبيّ، وكانت المعاني في مجملها إيجابيّة ركّزت على صورتهم الدّينيّة، وفضائلهم المعنويّة، وبخاصة قيمتي الكرم والشّجاعة، عدا قصيدة عمارة اليمنيّ التي هَجَتْ صلاح الدين، وقدّمت له صورة سلبيّة.
- ركّز الأدباء على صورة الفاطميّين، فكانت سلبيّة في معظم النّصوص إلا قصيدة عمارة اليمني في رثائهم. لقد صوّرتهم معظم النّصوص كفرة، ومشركين، وأهل بدعة وضلال، وشكّكوا في نسبهم، بل نسبوهم إلى اليهود، وصوّروا فكرهم مزيجاً من أفكار الباطنيّة والزّنادقة والمجوس، وكرّروا وصفهم بالمدّعين، الذين ادّعوا الخلافة زوراً وبهتاناً، ووقفوا على مصيرهم بعد الفتح، فقد أضحوا أذلّاء عبيداً، خربتْ قصورهم، ونهبتْ، وسبيت نساؤهم، وزال بزوالهم الكفر والإلحاد، والبدع والأهواء، وعادت مصر إلى الصّراط القويم. أمّا عمارة اليمني، فأشاد بالفاطميّين، وبفكرهم، وعبّر عن إيمانه العميق به، ووصف مكارمهم التي عمّته والبريّة جمعاء، ووصف أعيادهم ومناسباتهم الدّينية، وجعل أيامهم كلّها مكارم وأعياداً.
- وصف الأدباء حال الصّليبيّن بعد الفتح، فقد نزل فيهم الخوف والذّعر، وفقدوا الأمل من السّيطرة على مصر بعد زوال الدّولة الفاطميّة.

- **التوصيات**

بعد هذه الجولة في أدبي العصرين الفاطميّ والزنكيّ الذي كان صدى لفتح مصر الثّاني وإزالة الدولة الفاطمية، يمكن تسجيل بعض التوصيات الآتية للباحثين:

١- ضرورة استكمال دراسة الأدب العربي الذي تناوله هذا البحث من الناحية الفنيّة.

٢- زيادة الاهتمام والعناية بأدب العصر الفاطميّ، وقراءة الفكر الإسماعيليّ لما له من دور في الخروج بنتائج أفضل، تفي هذا الأدب حقّه، وتكشف عن أثر هذا الفكر في صياغته فنّاً وأسلوباً.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عزّ الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيبانيّ، (١٣٨٢هـ-١٩٦٣م)، التّاريخ الباهر في الدّولة الأتابكيّة (بالموصل) تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، د. ط، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.
- نفسه، (١٤٣٣هـ-٢٠١٢م)، الكامل في التّاريخ، حقّقه واعتنى به: عمر عبد السّلام تدمريّ، د. ط، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.
- الأصفهانيّ، عماد الدّين أبو عبد الله محمد بن محمّد، (١٣٧٥هـ-١٩٥٥م)، خريدة القصر وجريدة أهل العصر الجزء الأوّل، القسم العراقيّ، حققه وضبطه، وشرحه، وكتب مقدّمته: محمّد بهجة الأثري، أعدّ أصله، وشارك في معارضة نسخه، وصنع فهارسه: جميل سعد، د. ط، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ.
- نفسه (١٤٠٤هـ-١٩٨٣م)، ديوان العماد الأصفهانيّ، جمعه وحقّقه وقدّم له: ناظم رشيد، (د. ط).
- ابن البنداري، الفتح بن علي ((١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م)، اختصار الفتح بن علي البنداريّ من كتاب البرق الشّامي للعماد الأصفهانيّ، أو سنا البرق الشّاميّ تحقيق: فتحية النّبراويّ، د. ط، مكتبة الخانجي بمصر،
- ابن الجَوزيّ، أبو الفرج عبد الرّحمن بن عليّ بن محمّد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (د. ت)، دراسة وتحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه: نعيم زرزور، د. ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
- ابن خلّكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر (د.ت)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، حقّقه: إحسان عبّاس، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان.

- ابن إياس الحنفي، محمّد بن أحمد، بدائع الزّهور في وقائع الدّهور (د. ت)، حقّقها وكتب لها المقدّمة والفهارس، محمد مصطفى، د. ط، مكتبة دار الباز، مكة المكرّمة.
- الذّهبيّ، شمس الدين أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: تحقيق عمر عبد السلام تدمري، أجزاء مختلفة، دار الكتاب العربيّ.
- ذو النون المصريّ (١٣٨٦هـ-١٩٦٦م)، عمارة اليمنيّ، د. ط، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، مصر.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدّين أبو المظفّر يوسف بن قأوغلي ((١٤٣٤هـ-٢٠١٣م)، مرآة الزّمان في تواريخ الأعيان الجزء الحادي والعشرون، حقّق هذا الجزء وعلّق عليه: إبراهيم الزّيبق، ط١، الرسالة العلمية.
- أبو شامة المقدسيّ، شهاب الدّين عبد الرحمن بن إسماعيل الدّمشقيّ،(١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، كتاب الرّوضتين في أخبار الدّولتين النّوريّة والصّلاحيّة حقّقه وعلّق عليه: إبراهيم الزّيبق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- الصّفديّ، صلاح الدين خليل بن أيبك، كتاب الوافي بالوفيات (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، ط١، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان.
- أبو الفداء، عماد الدّين إسماعيل بن علي بن محمّود بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب ت٧٣٢هـ، (١٤١٧هـ-١٩٩٧م.)، تاريخ أبي الفداء المسمّى المختصر في أخبار الدّول، علّق عليه، ووضع حواشيه: محمود ديّوب، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان،
- ابن كثير، أبو الفداء أسماعيل (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م)، البداية والنّهاية، حقّقه وأخرج أحاديثه وعلّق عليه: رياض عبد الحميد مراد، راجعه: عبد القادر الأرناؤوط، وبشار عواد معروف، (د. ط)، دار ابن كثير للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان.

- المقريزيّ، تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن عليّ، (١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م)، اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفا تحقيق: محمّد عبد القادر أحمد عطا، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
- نفسه، (١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، السّلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن واصل الحمويّ، جمال الدّين محمّد بن سالم (د. ت)، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب الجزء الأوّل، حقّقه ووضع حواشيه: حسنين محمّد ربيع، راجعه وقدّم له: سعيد عبد الفتّاح عاشور.